

ABSTRAK

Penulis akan membincangkan di dalam kajiannya; “Surah ar-Rahman: Tafsir Bayaniyyah” perbincangan tafsir dan takwil dan perbezaan antara keduanya. Penulis berpendapat bahawa perbezaan antara keduanya seolah-olah sudah tiada pada masa kini kecuali beberapa penemuan di dalam kajian-kajian dan tesis sahaja.

Penulis membincangkan beberapa metod penafsiran al-Quran. Penulis membincangkan secara khusus metod penafsiran “al-Bayani” (Satu kaedah memahami makna sesuatu ungkapan di dalam bahasa arab dalam ilmu balaghah) pada fasa kedua dalam kajiannya. Kajian dimulakan dengan perbincangan maksud kepada “Tafsir Bayani”. Kajian diteruskan dengan sejarah permulaan dan perkembangannya yang bermula dari zaman Nabi s.a.w dan para sahabatnya. Ia diteruskan dengan usaha para ulama selepas itu dan diteruskan oleh Imam Muhamad Abduh dengan gagasan baru pemikirannya. Beliau memberikan sumbangan yang amat besar dalam peningkatan pembelajaran ilmu Islam khususnya al-Quran. Penulis mengakhiri fasa ini dengan menyebut berapa contoh ulama terkini dan usaha mereka dalam bab ini.

Pada bab yang ketiga, penulis menjelaskan tentang Surah ar-Rahman secara ringkas seterusnya menjelaskan beberapa perkara yang penting dalam surah ini. Penulis mendatangkan beberapa perbincangan ulama tentang “makkiyyah” atau “madaniyyah” surah ini dan berpendapat bahawa surah ini adalah “makkiyyah”. Ini berdasarkan kepada konteks ayat dalam surah ini, perbincangan-perbincangannya, dan melihat kepada topik-topik utama dalam surah ini.

Fasa yang keempat adalah fasa utama dalam kajian ini. Penulis mengkaji penafsiran secara “bayani” pada surah ini. Metodenya ialah; mencari perkataan yang kurang jelas maksudnya, cari perkataan yang sama dalam surah ini atau di dalam al-Quran dan mencari maknanya. Kajian juga dijalankan terhadap pemilihan perkataan dalam surah ini dan rahsia yang tersembunyi di sebaliknya. Seterusnya penulis cuba mencari rahsia di sebaliknya susunan perkataan dan penghapusan beberapa perkataan dalam surah ini. Kajian adalah secara umum dan tidak membincangkan secara mendalam dalam ilmu balaghah.

Bab terakhir dalam fasa ini membincangkan secara khusus sebab pengulangan perkataan dalam al-Quran. Dibincangkan maksud pengulangan, bentuknya dan tujuan darinya. Penulis mendatangkan perbincangan ulama pada penamaannya dan maksud darinya. Seterusnya penulis mengkaji pengulangan beberapa perkataan dalam Surah ar-Rahman dan beberapa contoh lain dalam al-Quran.

Kajian diakhiri dengan penutup dan beberapa hasil kajian dan cadangan.

Abstract

In this study, "*Surah AL-Rahamn : Rhetoric Study*," the researcher reviewed the difference between the '*Tafseer*' and '*Ta'weel*' of the Holy Quran . In our time, the difference has almost disappeared, and it is only seen in the scientific studies or researches.

The researcher also discussed the trends and types of '*Tafseer*'. Chapter two, particularly, shows the rhetoric trend: the concept, the inception as well as the stages form the era of Prophet Mohammed (P.B.U.H) and his noble companions, the precedent scholars, and *Imam* Muhammed Abduh's school of thought, which has had the greatest impact on the *Sharia* studies, in general, and the *Qur'anic* ones, in particular. The chapter ends by mentioning the effects of the contemporary scholars and their role in this field.

In chapter three, the researcher, briefly and precisely, defined *Surah Al-Rahamn* and illustrated the most important aspects included in the *Surah*. Moreover, the researcher reviewed the difference among scholars pertaining to whether this *Surah* is *Maki* or *Madni*, and supported the former based on the *Surah* style and themes included in it. Generally, the researcher studied the main themes in the *Surah*.

In the fourth and the last chapter, essence of the research, the researcher studied the *Surah* rhetorically by using main means such as "Similarity of utterances (words)" (*Att-shabuh Alafthzi*) in the *Surah* . *The researcher compared such utterances (words) in the Suarh to each other as well as to others included in other Suwar of the Holy Qur'an*. The researcher also studied a number of these utterances (*Alfathz*) in the *Surah*, selected according to inimitability of Holy Qura'n in selecting utterances (*Alfathz*). Furthermore, the researcher reviewed the '*Taqdeem*', (aforementioned), "*Ta'kher*' (post-mentioned), '*stating*' (*Thikr*), and '*omission*', (*Hathf*) in the *Surah*, without further details on Rhetoric.

In the last part of the research, the researcher studied the Quranic method pertaining to the repetition in the Holy Qura'n : the concept, types , purposes , and the difference among scholars in its definition and essence . Then, the researcher studied the repetition in the *Suarh and* presented other examples from other *Suwar* of the Holy Qura'n.

In the end, the conclusions and recommendations of the research were presented.

ملخص البحث

استعرض الباحث في دراسته هذه "سورة الرحمن: دراسة بيانية" موضوع التفسير والتأويل والفرق بينهما، ويبيّن أن الفرق في عصرنا هذا قد اختفى أو كاد، وما عاد له من آثار تظهر إلا في الدراسات أو البحوث العلمية.

كما تعرّض الباحث لأنواع التفسير واتجاهاته، وخصّ الاتجاه البياني بالفصل الثاني من دراسته؛ حيث بيّن فيه مفهومه، وعرضَ لنشأته والأطوار التي مرّ عليها منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام، مروراً بجهود المتقدمين من علماء الأمة، إلى أن وصل إلى مدرسة الأستاذ الإمام محمد عبده والتي كان لها أكبر الأثر على صعيد الدراسات الشرعية، والقرآنية منها على وجه الخصوص، وختم الفصل بذكر جهود المعاصرين ودورهم في هذا الباب.

وفي الفصل الثالث قام الباحث بالتعريف بسورة الرحمن بشكل مختصر ومركّز؛ بيّن فيه أهم الجوانب في السورة الكريمة، واستعرض الخلاف الواقع بين العلماء في شأن مكيّتها أو مدنيّتها، فرجّح الرأي القائل بمكيّتها استناداً على أسلوب السورة والمواضيع التي طرقتها، كما قام بدراسة عامة لأهم الموضوعات الواردة في السورة.

وفي الفصل الرابع والأخير وهو لبُّ البحث وجوهره، فإنه قام بدراسة السورة بيانياً عبر أدوات أهمّها: التشابه اللفظي في السورة مقارنة بما فيها نفسها أو غيرها من سور الكتاب العزيز، كذلك فإنه قام بدراسة عدد من ألفاظ السورة كان المعيار المتّبع في اختيارها بيان إعجاز القرآن في اختيار اللفظ. كما وأنه استعرض التقديم والتأخير والذكر والحذف الواردين في السورة الكريمة دون التعمّق بمباحث البلاغة وفنونها.

وخصّ المبحث الأخير منه بدراسة منهج القرآن في قضية التكرار؛ فعرض لمفهومه وأنواعه وأغراضه، والخلاف بين العلماء على تسميته وماهيّته، ثم درس التكرار الوارد في سورة الرحمن، وعرض لأمثلة أخرى على التكرار من سور القرآن الكريم.

ثم اختتم الباحث دراسته بخاتمة عرض فيها لأهم النتائج والمقترحات.

الإهداء

إلى القمرين الذَّيْنِ أنارا حياتي .. فنشرا فيها أعلام الضياء ..
وبعثا بها موات الروح .. وأيقظا منها زهرَ الكائنات ..
يبعث بعرفه الفواح في أنحاء نفسي ...
إليهما .. أبي وأمي .. دمتما في رعاية الله وحفظه ..
كما رعيتماي وحفظتماي .. وكما أسهرتما القلب والروح .. يتبعاني حيث مضيت ...
وإلى الكواكب الثلاثة حولي وحولهما ..
إخوتي .. وللزمان الذي أفيناه أنساً ومحبةً وأخوة ..
تحت نور ذينك القمرين ...
وإلى كل صاحب فضل عليّ ..
أهدي أول عمل لي ...

شكر ووفاء

أمل قاصد، وجهد هادف، وضرب في أنحاء الحياة موفق؛ ذلك هو سعي الإنسان بمفرده، ولن يكون لذلك الأمل ثمر، ولا لتلك المساعي نتاج؛ ما لم يكن لها من الله عون، ومن القدر رجاء، ولهذا البذل دفع وإسعاف، وكيف يكون كل ذلك؛ إن لم تحفّه من حوله مروعات، وتدفعه إلى بُغيته معونة أوفياء، وكلاءة أبرار كرماء؛ ذلك ما لقيته من أولئك النفر الطيب الذي أعاني على مهمتي فحققتُ، ووقف معي في رسالتي هذه فأديتُ، ومدّ لي اليد الكريمة فأعطيت.

فشكري لهم لا يتقاصر أو يضلّ، وعرفاني لهباتهم لا يجحد أو ينسى، ودعائي لهم لا يخبو أو ينقطع، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله، وعليه أرجي شكري الخالص:

لأستاذي الكريم، وشيخي النبيل، ذلك الذي أفرغ من وقته الثمين، وبذل من جهده السخيّ .. كثيرا كثيرا .. فقدم النفع .. فكانت هذه الرسالة

وللشيخ العلامة الأستاذ الدكتور فضل حسن عباس .. كل ما في كنانة هذا اللسان من دعاء حار بأن ينفع الله به ويعلمه كيفاء ما شرفني من قبوله بتحكيم الرسالة.

وللدكتور الفاضل مصطفى عبد الله على توجيهاته الكريمة وملاحظاته القيمة فجزاه الله عني خير الجزاء...

ولصاحب الومضة المجدية والتي كانت فيما بعد عارضا متهللا من غيث مزنه، والذي قدح بزنده فأورى نارا ونورا .. الصديق والشيخ الدكتور أبو عامر لييب جبران .. خير الجزاء وصادق الثناء.

وتلك التي تكرمتم فقرأت ووجهت وأشارت فصوّبت الأستاذة الكريمة نعمت القصاص ..
فلها مني لسان ثناء لا يتكذّب، وذكر خير لا ينقطع.

وللأديب الأريب والحبیب القريب الأستاذ الكبير عبد الله الطنطاوي أبي السامي فضل لا
ينكره من نال من علمه وتأدب بأدبه .. فأعلى الله مقامه، ورفع درجته عنده.

والعم الكريم والشيخ الجليل الدكتور أبو محمود شكور صاحب التوجيهات المفيدة والإشارات
النافعة .. لا أخلاه الله من فضله ونعمه.

وللأصحاب ما يتعدى الذكر والمدح .. فما عهدنا أن نتقارض الثناء .. وإنما هي التضحية
بالنفس والنفيس .. وأخص منهم ذلك صاحب الأمين .. والذي لا آمن نفسي على سرها
كما آمنه عليه .. إبراهيم الزبيد .. ذلك الذي يعجز اللسان عن الثناء عليه، ولا جزاء إلا ما
يكافئه الله عليه من نعمه وفضله .. فاللهم وفقه وافتح عليه وعلى أهله وذويه.

والأخ الشاعر إبراهيم العبادي، والصديق الكبير كمال المدرساوي، ورفيق الدرب الطويل
براء الغراية، وصاحب النسمات الذائعة مصطفى نجم .. وغيرهم مما لا أعد ولا أوفي ..
جزاهم الله عني خير الجزاء في هذه العاجلة الفانية وفي تلك الآخرة الباقية.

والختام دوماً بالمسك والعنبر والرياحين .. أهلي الكرام .. أولئك الذين لم يرضوا على بوقت
أو جهد أو نفع أو توجيه أو نصح أو دعاء حار تلهج به ألسنتهم .. يتصدّ إلى الله رب
العالمين بالتوفيق والفتح الإلهي ..

أبي .. ذلك النجم السماوي المنير.

أمي .. تلك الريحانة الشذية .. التي تبعث بأريجها الفواح في دنيانا.

أخي سعيد .. ذلك المقدام الهمام ..

أختاي .. تانك الجوهرتان المضيئتان .. أسعدهما الله

جزاكم جميعاً عني كل خير لا يعلمه إلا هو .. وعل الله ييسر فتحاً قريباً ...

والحمد لله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فهرس المحتويات

أ.....	ABSTRAK
ب.....	ABSTRACT
ج.....	ملخص البحث
د.....	الإهداء
هـ.....	شكر ووفاء
ز.....	فهرس المحتويات
1.....	المقدمة
6.....	أهمية الموضوع
7.....	أسئلة البحث
7.....	منهج البحث
8.....	الدراسات السابقة
10.....	خطة البحث
13.....	الفصل الأول: التفسير : مفهومه واتجاهاته
14.....	المبحث الأول: تعريف التفسير والتأويل
14.....	المطلب الأول: تعريف التفسير لغة واصطلاحا
14.....	أولاً: التفسير في اللغة:
16.....	ثانياً: التفسير في الاصطلاح:
19.....	المطلب الثاني: تعريف التأويل لغة واصطلاحا:
19.....	أولاً: التأويل في اللغة:
23.....	ثانياً: التأويل في الاصطلاح:
25.....	المطلب الثالث: الفرق بين التفسير والتأويل:
32.....	المبحث الثاني: أنواع التفسير واتجاهاته
32.....	المطلب الأول: أنواع التفسير
32.....	أولاً: التفسير بالمأثور
40.....	ثانياً: التفسير بالرأي
44.....	المطلب الثاني: اتجاهات التفسير
46.....	أولاً: الاتجاه العقدي
48.....	ثانياً: الاتجاه الفقهي
50.....	ثالثاً: الاتجاه العلمي التجريبي
53.....	الفصل الثاني: التفسير البياني : بين المفهوم والتاريخ
54.....	المبحث الأول : مفهوم التفسير البياني

64	المبحث الثاني: التفسير البياني : النشأة والتاريخ
64	المطلب الأول : مدخل إلى تاريخ التفسير البياني
71	المطلب الثاني: جهود المتقدمين في هذا المضمار
90	المطلب الثالث: التفسير البياني في العصر الحديث
110	الفصل الثالث: التعريف بسورة الرحمن
111	المبحث الأول: بين يدي السورة
113	المبحث الثاني: تصنيف السورة
113	المطلب الأول: نسب السورة (مكية أم مدنية)
115	المطلب الثاني: سبب النزول
118	المبحث الثالث: توصيف السورة
118	المطلب الأول: ترتيبها في التلاوة والنزول
118	المطلب الثاني: فضلها
121	المبحث الرابع: مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها
121	المطلب الأول: مناسبتها لما قبلها
123	المطلب الثاني: مناسبتها لما بعدها
125	الفصل الرابع: أدوات التفسير البياني في سورة الرحمن
126	المبحث الأول: المتشابه اللفظي في الآيات ودراسة ألفاظ السورة
126	المطلب الأول: المتشابه اللفظي في الآيات
146	المطلب الثاني: دراسة ألفاظ السورة
159	المبحث الثاني: التقديم والتأخير والذكر والحذف
159	المطلب الأول: التقديم والتأخير
165	المطلب الثاني: الذكر والحذف
169	المبحث الثالث: التصوير الفني
174	المبحث الرابع: منهج القرآن فيما يسمى بالتكرار
174	المطلب الأول: التكرار: مفهومه وأنواعه وأغراضه
174	أولاً: مفهوم التكرار
176	ثانياً: أنواع التكرار
180	ثالثاً: أغراض التكرار
183	المطلب الثاني: التكرار بين المؤيدين والمعارضين
186	المطلب الثالث: أمثلة على التكرار
190	المطلب الرابع: التكرار في سورة الرحمن
194	أخيراً: أهم ما توصل إليه الباحث في دراسته من نتائج
197	المصادر والمراجع

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وإذا نظرنا إلى كل معجزة أيد الله بها رسولا من رسله، فإننا نرى أنها فوق طاقة البشر ولا يمكن أن تكون كذلك إلا إذا كانت من جنس ما اشتهر به قوم ذلك الرسول؛ حتى لا يحتج بمجادل بجهل ذلك العلم، فيقول: لو علمنا به لجئنا بمثل الذي جئت به، وعلى هذا الأساس كانت المعجزات، فكانت معجزة موسى عليه السلام اليد والعصا وهذه المعجزة من جنس ما اشتهر به قومه وتفوقوا فيه، ولكنها ليست سحرا فهي فوق طاقة السحرة لأنها من الله .

وبرع قوم عيسى عليه السلام في الطب، فكانت معجزته من جنس ما برعوا فيه، ولكنها فوق طاقة الأطباء لأنها من الله. وقد كانت معجزة محمد صلى الله عليه وسلم على هذا الأساس أيضا من جنس ما اشتهر به العرب وتفوقوا فيه، فقد تفوق العرب في اللسان فجاء القرآن من جنس ذلك اللسان.

وقد جاء القرآن منهجا ومعجزة في وقت واحد، فهو يختلف عن تورات موسى وإنجيل عيسى عليهما السلام؛ فالتوراة منهج منفصل عن معجزة موسى عليه السلام، والإنجيل منهج منفصل عن معجزة عيسى عليه السلام، أما القرآن فهو معجزة، وهو منهج في الوقت نفسه، ولعل السر في ذلك، أن القرآن لم يترل على أنه كتاب بيئة معينة، أو زمان معين، وإنما نزل على أنه كتاب البشرية كلها، وكتاب كل زمان ومكان، والرسول الذي أنزل عليه رسول للناس جميعا من لدن بعثته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فلا بد أن يكون المنهج

والمعجزة متلازمين حتى إذا مات الرسول تبقى المعجزة على طول الزمان، يشاهدها كل البشر ويطلع عليها كل من أراد. ولو كانت معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم حسية وغير منهجية لانقطعت بموته كبقية المعجزات، وهذا ينافي عموم الرسالة وختمها للرسالات، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ (١٥٨) الأعراف: ١٥٨، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا ﴾ (٢٨) سبأ: ٢٨، وقال تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥٧) يونس: ٥٧

فهذا القرآن كتاب الله الخالد للبشرية كلها إلى آخر الدهر، نزل على قلب محمد خاتم النبيين وآخر المرسلين إلى الناس أجمعين، وهو محفوظ بحفظ الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٩) الحجر: ٩، ومن حفظ الله تعالى للقرآن أنه سخر له تلك العناية التي لا تنتهي من تلاوته والتعبد به وتفسير آياته وتقليب معانيه واستخراج كنوزه التي لا تخلق لا تبلى، ودرره التي لا تبيد ولا تفنى .

القرآن الكريم كتاب الإسلام الخالد قال تعالى: ﴿ الرِّكَابُ أُنْكَبُ أَيْنُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (١) هود: ١، وقد عني به المسلمون عناية كبرى في القديم والحديث وقد اتخذت هذه العناية أشكالاً مختلفة، فتارة ترجع إلى لفظه وأدائه وأخرى إلى أسلوبه وإعجازه وثالثة إلى تفسيره وشرحه إلى غير ذلك.

لقد شغل هذا القرآن الأمة منذ بزوغ نوره في جنباتها، وملك عليها نفسها بعد أن أكرمها الله بتزيله على نبيها صلى الله عليه وسلم، فأخرج منها أمة الخير تتلوه آناء الليل وأطراف النهار، وتتدبر آياته في كل وقت وآن؛ حتى نهضت في رحابها علوم لم تعرف الدنيا قبل هذا القرآن منها شيئاً، ولم يخطر من سوانحها طيفاً، فاستمدت منه تاريخاً سجل للبشرية أحداثها، وأداءً في علوم اللغة والأدب والمعاني والمفردات ما أدهش البشرية وانتزع إعجابها على رغم العدا والمناوذة والشر، وسجل في حضارة الأمة فصلاً من المعرفة والعلم لا يداني ولا تصل إليه حضارة من قبله .

ومن فيض تلك العلوم التي قام بها علماء الإسلام بحثاً في هذا القرآن المعجز، وتديراً لمعانيه واصطلياداً لمقاصده؛ علوم دقيقة في البلاغة لم تعرفها اللغات قبل "وهي ذات أفانين كثيرة بعيدة المدى مترامية الأطراف، موزعة على آياته، منتشرة في سوره وكلماته، فالأحكام في آيات الأحكام، والآداب في آياتها، والقصص في مواقعها؛ وربما اشتملت الآية الواحدة على فنين أو أكثر من تلك الفنون، وقد نحا بعض المفسرين نحو تلك الأفانين. لكن فنا من فنون القرآن لا تخلو عن دقائقه ونكته آية من آياته وهو من دقائق البلاغة قصر عنه الكثير من المفسرين" كما قال الشيخ ابن عاشور في مقدمة تفسيره التحرير والتنوير. وهو بذلك يستدرك دقائق غابت عن المفسرين الآخرين، وهذا يؤكد إعجاز القرآن الذي لا ينتهي؛ ففي كل عصر تظهر علوم ومعارف، وتنكشف للباحثين معانٍ وأسرار لم تكن معروفة من قبل وهذه معجزة هذا الكتاب الخالد؛ إذ لو توقف عطاؤه عند عصر من العصور، أو كفَّ عن فيوضاته التي لا تنتهي في وقت من الأوقات لما تحقق فيه ذلك الوصف من الإعجاز.

لقد تحدى القرآن العرب ثم جميع الخلائق بأن يأتوا بمثله، ثم أخبر أنهم لن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا. تحداهم بأن يأتوا بعشر سور مثله إن كانوا يرون أنه مفترى، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ هود: ١٣. فلما انقطعوا وقامت الحجة عليهم قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ البقرة: ٢٣. وأكد التحدي بقوله: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ الإسراء: ٨٨.

دعا القرآن العرب إلى أن يأتوا بسورة من مثله، ويشمل هذا التحدي قصار السور كما يشمل طواها؛ فهو تحداهم بسورة الكوثر والإخلاص والمعوذتين والنصر أو أية سورة يختارونها فلم يفعلوا لما يعلمون من عجزهم، بل سعوا جاهدين إلى أن لا يصل إلى أسماعهم لأنه يحدث في نفس السامع دويا هائلا وهزة عنيفة، وهم يدركون ذلك لأنهم أهل البلاغة واللسن، فحكى القرآن عنهم ذلك بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فصلت: ٢٦. وما قول الوليد بن المغيرة بسر؛ فقد اجتمع إليه نفر من قريش ليجمعوا على رأي واحد يصدرون عنه، يقولونه للناس في المواسم، فقال بعضهم: شاعر وقال بعضهم: كاهن وقال بعضهم: ساحر أو مجنون، فكان يرد هذه الأقوال ويفندها، ثم قال: "والله إن لقوله حلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه ليعلو وما يعلو عليه".

خَلَبَ القرآنَ ألبابَ المسلمين واستولى على قلوبهم، وتعلق بأفئدتهم، ففتفروا له وأعطوه من وقتهم ما لم ينله كتاب آخر عند قوم من الأقسام، فكان دعاءهم في المسجد، ونظامهم في البيت، ومنهاجهم في العمل، ودستورهم في الحكومة؛ فسرى هديه فيه مسرى الروح، ونزل وحيه منهم منزلة الطبع، وأثر في ألسنتهم وأفئدتهم وأنظمتهم، ومن قبل ذلك ومن بعده في عبادتهم وصلواتهم، فهاموا به تلاوة وترتيلًا، وشغفوا به حفظًا وخطابة وتعليمًا، ثم انصرفوا إلى تفسيره على وجوه من الأدب واللغة والبلاغة، وضروب من التأويل في المعاني والمباني والتراكيب لتوضيح مُشْكِلِهِ، وتفسير غريبه في الحديث والأصول والفقه، واستنباط أحكام الشرع منه؛ فكانت مطولات التفسير ومختصراته من "الكشاف" للزمخشري و"الحرر والوجيز" لابن عطية و"مفاتيح الغيب" للرازي، ومختصرات "الكشاف" مثل "البيضاوي" وتفسير الشهاب الآلوسي و"القرطبي" وتفسير الأحكام المختلفة وتفسير "الإمام الطبري" شيخ المفسرين وإمامهم إلى غيرها الكثير مما نجد في مظانه من المراجع .

وفي الختام نجد في كتاب الله تعالى القرآن المجيد جناتٍ وارفة الظلال، وارفة الغلال، دانية الجنى، قرية المنال، والحياة في هذه الظلال منة عظيمة، ونعمة جزيلة جليلة، لا يقدرها حق قدرها إلا من ذاق الحلاوة واستروح الظلال، وانتشى بالعبق والعبير، وتنسم النسائم المبللة بالندى والروح والريحان؛ تهب من آيات القرآن وكلماته العذاب الحسان، وكل سورة من هذه الرياض الغناء زهور في أكمامها تتفتح بالتفسير؛ عن ألوان معجبة، وروائح عطرة منعشة، وعن معان رائعة مدهشة.

وهذا البحث إنما جاء في هذا السياق العظيم المبارك كما تكون القطرة في النهر الدفاق، أرادت أن تبين جمال اللفظ ومثانة التركيب وتناسق النظم — ما أمكن — في سورة

الرحمن، تتلمس آثار الجلة من العلماء ، وتتقرى طريقهم الصعب الذي أفنوا خلاصة حياتهم في تمهيده وأنضوا مطايا أعمارهم في تقريره فرحمهم الله وأجزل مثوبتهم.

جعلنا الله سبحانه من حملة هذا الكتاب ليكون لنا هدى وشفاء ورحمة، ووهبنا به عز الدنيا وسعادة الآخرة؛ والله سبحانه أكرم من أجاب، وخير من أعطى وهو حسبنا ونعم الوكيل.

أهمية الموضوع

1. تفسير القرآن الكريم هو الطريق الوحيد لفهمه واستيعابه ، ومن ثمّ التمسك بأوامره وترك نواهيه ، والعمل بمقتضى ذلك الفهم الذي استوجبه .
2. التعبير القرآني هو أهمُّ خصائص بيان القرآن الفارقة بينه وبين أي بيان مما كتب بذلك اللسان، فلا بدّ للناظر في كتاب الله أن يدرك أسرار هذا التعبير حتى يتسنى له الفهم الصحيح لما وراء الألفاظ والتراكيب من معان ومفاهيم وحقائق .
3. جمال القرآن الكريم يكمن في بيانه وتعبيره وأسلوبه فالبحث في هذا المجال هو بحث في سر من أسرار الجمال في هذا الكتاب الذي لا يخلق على كثرة الرد .
4. تفاسير القرآن كثيرة جدا وهي بين أيدي الناس، يتناولها ويقلب صفحاتها من يشاء ولكنّ جلّها مما يعسر على العامة مطالعتها والبحث فيها ؛ إذ هي كتبت للخاصة من الباحثين والمطلعين وكثير من العامة يودّ لو أن هناك تفاسير سهلة تعنى ببيان القرآن وجمال تعبيره تيسر له الاطلاع على هذه المعاني الرائعة الرائقة في كتاب الله .

أسئلة البحث

1. ما هو مفهوم التفسير البياني ؟ وكيف نشأ هذا الاتجاه من التفسير؟
2. إلى أي حد تطور التفسير البياني في العصر الحديث ؟ وكيف أثرت هذه المدرسة في هذا الاتجاه؟
3. ما هو المنهج في تفسير سورة الرحمن ؟
4. كيف تساق الأسلوب البياني في السورة مع موضوعها؟
5. كيف كان تعبير القرآن يتناوب ذكرًا وحذفًا أو تقديمًا وتأخيرًا أو تشابهاً واختلافًا في سورة الرحمن أو بينها وبين غيرها من سور القرآن الكريم ؟
6. وما هو منهج القرآن فيما يسمى بالتكرار ؟ وما هي الآراء فيه ؟

منهج البحث

المناهج المعتمدة في هذا البحث هي :

1. المنهج التحليلي لآيات سورة الرحمن وتراكيب الجمل واختيار الألفاظ فيها والذي من خلاله يمكن توضيح أكبر قدر من أسرار التعبير القرآني في هذه السورة من خلال تفسير العلماء لها.
2. المنهج الاستقرائي من خلال قراءة آيات السورة بشكل يسلط الضوء على المناحي البلاغية والبيانية واستقراء آراء العلماء في تفاسيرهم وأقوالهم التي أظهرت هذه المناحي وشرحتها.

3. المنهج الاستنباطي : محاولة لاستخلاص الأشكال والصور البيانية في آيات السورة من أقوال المفسرين فيها ومحاكمة هذه الأقوال ومدى انضباطها على القواعد البيانية في علم البلاغة والبيان.

الدراسات السابقة

تفاسير القرآن الكريم كثيرة جدا وجليلة القدر أيضا وفيها كثير من أسرار هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ويستطيع الباحث فيها أو الناظر لكتاب الله أن يستغني بها عن كثير سواها ، ولكن الإحاطة بهذا الكتاب غير ممكنة ولا يستطيعها أحد مهما أوتي من علم غزير أو معرفة شاملة أو استقصاء دقيق؛ إذ هو كتاب لكل زمان ومكان وهو معجزة الله الخالدة على مرّ الدهور وكرّ الأزمنة فكل عقل حكيم ولسان مبين وقلب بصير قادر على أن يرى في كتاب الله ما لم يره غيره.

فكل هذه التفاسير الموجودة بين أيدينا تعد دراسة وافية باللغة في تفسير سورة الرحمن وغيرها وان لم تختصّ بالتفسير البياني وحده ولكني أذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر عددا منها من اللواتي كان الاهتمام فيها مركزا على قضايا اللغة والبلاغة والبيان :

1. تفسير الكشف لجار الله الزمخشري وهو تفسير بدیع إذا خلا مما أخذه العلماء عليه ، ولعله يعد المرجع الأكبر لكل من بعده في هذا الباب .

2. تفسير أبي السعود على الرغم من وعورة أسلوبه فقد كُتب في زمن كان للغة بهاؤها وروعته.

3. روح المعاني للشهاب الألوسي وهو تفسير جليل عظيم على رغم ما أكثر فيه صاحبه من إشارات ودلالات حتى عُدد من التفسير الإشاري.

هذا على صعيد التفاسير العامة أما على صعيد الدراسات المستقلة فلم يجد فيها الباحث دراسة بيانية مستقلة تناولتها من الناحية البلاغية والبيانية على الإطلاق - حسب اطلاعي - فكل ما هو موجود يتناول هذه السورة وغيرها من الناحية التحليلية أو الموضوعية ومن هذه الدراسات:

4. دراسة للأستاذ شوقي ضيف لسورة الرحمن وسور قصار أخرى تناول فيها السورة وغيرها بشكل تحليلي ولم يتطرق إلى المعاني البلاغية أو اللفات البيانية فقد كانت دراسته عبارة عن مقالات أرسلها إلى جريدة الأهرام ثم جمعها في كتاب.

أما على صعيد الدراسات البيانية في غير هذه السورة

5. فللدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ دراسات بيانية لعدد من السور القصيرة نشرتها في كتابها التفسير البياني ولكنها اقتصررت على عدد من قصار السور محاولة أن تنهج في دراستها نهج أستاذها وزوجها أمين الخولي ولكنها لم تتابع في ذلك.

6. وكذلك للدكتور فاضل السامرائي - حفظه الله - كتاب قيم قام فيه بتفسير عدد من السور القصيرة كذلك ثم اتبعه بجزء ثانٍ درس فيه سورتي "يس ولقمان" وسماه "على طريق التفسير البياني".

خطة البحث

قام الباحث بتقسيم الدراسة إلى مقدمة وخمسة فصول وخاتمة بالإضافة إلى الفهارس وذلك كما يأتي :

الفصل الأول : التفسير : مفهومه واتجاهاته

المبحث الأول : التفسير والتأويل : المفهوم والفروق

المطلب الأول : تعريف التفسير لغة واصطلاحاً

المطلب الثاني : تعريف التأويل لغة واصطلاحاً

المطلب الثالث : الفرق بين التفسير والتأويل

المبحث الثاني : أنواع التفسير واتجاهاته

المطلب الأول : أنواع التفسير

المطلب الثاني : اتجاهات التفسير

الفصل الثاني : التفسير البياني : بين المفهوم والتاريخ

المبحث الأول : مفهوم التفسير البياني

المبحث الثاني : تاريخ التفسير البياني

المطلب الأول : مدخل إلى تاريخ التفسير البياني

المطلب الثاني : جهود المتقدمين في هذا المضمار

المطلب الثالث : التفسير البياني في العصر الحديث

الفصل الثالث : التعريف بسورة الرحمن (بطاقة السورة)

المبحث الأول : بين يدي السورة

المبحث الثاني : تصنيف السورة

المطلب الأول: نسب السورة (مكية أم مدنية)

المطلب الثاني: سبب النزول

المبحث الثالث : توصيف السورة

المطلب الأول: ترتيبها في التلاوة والنزول

المطلب الثاني: فضلها

المبحث الرابع: مناسبتها لما قبلها وما بعدها

المطلب الأول: مناسبتها لما قبلها

المطلب الثاني: مناسبتها لما بعدها

الفصل الرابع : أدوات التفسير البياني في سورة الرحمن

المبحث الأول : التشابه اللفظي في السورة

المبحث الثاني : التقديم والتأخير والذكر والحذف

المطلب الأول : التقديم والتأخير

المطلب الثاني : الذكر والحذف

المبحث الثالث : منهج القرآن الكريم فيما يسمى بالتكرار

المطلب الأول : التكرار : مفهومه وأنواعه

المطلب الثاني : التكرار : بين المؤيدين والمعارضين

المطلب الثالث : أمثلة على التكرار

المطلب الرابع : التكرار في سورة الرحمن

الخاتمة : وتشمل أهم النتائج التي خرج بها البحث.

الفصل الأول

التفسير : مفهومه واتجاهاته

المبحث الأول: التفسير والتأويل : المفهوم والفروق

المبحث الثاني: أنواع التفسير واتجاهاته

المبحث الأول

تعريف التفسير والتأويل

وفيه ثلاثة مطالب

المطلب الأول: تعريف التفسير لغة واصطلاحاً

أولاً: التفسير في اللغة:

التفسير مصدرٌ على وزن "تفعيل" وفعله الثلاثي (فَسَرَ) والجذر الثلاثي للتفسير هو (فَسَر).⁽¹⁾

قال ابن فارس: الفَسَرُ كلمة تدل على بيان شيء وإيضاحه، يقال: فَسَرْتُ الشيء، وَفَسَّرْتُهُ⁽¹⁾

قال الراغب في المفردات، والمناوي في التوقيف: الفَسَرُ: إظهار المعنى المعقول⁽²⁾، ومنه قيل لما يُنبئ عنه البول: تَفْسِيرُهُ⁽³⁾ فالفَسَرُ: نظر الطبيب إلى الماء، وقيل التَفْسِيرَةُ: البول الذي يستدل به على المرض، وينظر فيه الأطباء يستدلون بلونه على علة العليل، وكل شيء يعرف به تفسيرُ الشيء ومعناه فهو: تَفْسِيرُهُ، والتفسير: كشف المراد من اللفظ المشكل.⁽⁴⁾

1- أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، ج4، 504.

2- الراغب الأصفهاني، الحسين بن الفضل، مفردات ألفاظ القرآن، ط3، 1423هـ، دار القلم، دمشق، ص636. المناوي، محمد بن عبد الرؤوف، التوقيف على مهمات التعاريف، ط2، 1423هـ، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر - سوريا، ص557.

3- الراغب: المفردات، مرجع سابق، ص636.

4- ابن منظور، جمال الدين بن محمد بن محمد بن مكرم، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، لبنان، مؤسسة التاريخ العربي، تحقيق محمد عبد الوهاب، محمد الصادق العبيدي، ج10، 261.

وفي التعريفات للجرجاني: التفسير في اللغة: هو الكشف والإظهار، قال تعالى: ﴿وَلَا

يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ قَسِيرًا﴾ الفرقان: ٣٣ ، أي بيانا وتفصيلا،

فالتفسير لغة: يستعمل في الكشف الحسي وفي الكشف عن المعاني المعقولة.⁽⁵⁾

وقال المناوي: والتفسير يقال فيما يختص بمفردات الألفاظ وغريبها وفيما يختص

بالتأويل، ولهذا يقال: تفسير الرؤيا وتأويلها.⁽⁶⁾

وقال الكفوي في الكليات: التفسير : الاستبانة والكشف، والعبارة عن الشيء بلفظ

أيسر وأسهل من لفظ الأصل. وقال أهل البيان: التفسير هو أن يكون في الكلام لبس وخفاء؛
فيؤتى بما يزيله ويفسره.⁽⁷⁾

فتفسير الكلام: هو بيان معناه وإظهاره وتوضيحه وإزالة إشكاله والكشف عن المراد

منه.

وقال آخرون: هو مقلوب من (سَفَر)، ومعناه أيضا الكشف، يقال: سَفَرَت المرأة

سفورا، إذا أَلْقَتْ خمارها عن وجهها، وهي سافرة، وأسفر الصبح: أضاء، وسافر فلان، وإنما

بنّوه على (التفعيل) للتكثير والمبالغة، فالمسافر ينكشف عن مكانه ويظهر للآخرين. وقال

الراغب: الفسرّ والسفرّ يتقارب معناهما كتقارب لفظيهما، لكن جعل الفسرّ لإظهار المعنى

5- الجرجاني، علي بن محمد، التعريفات، دار الريان للتراث، تحقيق إبراهيم الأبياري ص 87 .

6- المناوي، التوقيف، مرجع سابق، ص 557.

7- أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، ط2، 1413هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص 260 .

المعقول، ومنه قيل لما يُنبئ عنه البول تفسيرة، وسمي بها قارورة الماء، وجعل السفر إبراز الأعيان للأبصار، ف قيل: سمرت المرأة عن وجهها وأسفر الصبح.⁽⁸⁾

فالتقارب بينهما ناتج عن اشتقاقهما اشتقاقاً أكبر.

وقد نقل الشيخ فضل عباس في كتابه التفسير أساسياته واتجاهاته قول العلامة الآلوسي في مقدمة تفسيره: "إن ذلك مما لا يسفر له وجه" أي في نفي الصلة بين السفر والفسر. ثم يعلق الشيخ فضل على ذلك بقوله: والذي أراه أن ما ذهب إليه علامة الرافدين من إنكار الصلة بين الفسر والسفر لا يؤيده فقه اللغة واستعمال ألفاظها.⁽⁹⁾

ثانياً: التفسير في الاصطلاح:

بعد أن عرفنا معنى التفسير في اللغة وأن اشتقاقه من الفسر، والصلة بين السفر والفسر نتقل الآن إلى تعريفه مصطلحاً.

للعلماء المفسرين عدة أقوال في تعريف التفسير أوردها الإمام السيوطي رحمه الله تعالى

في الإتيان:

1. قال بعضهم: التفسير في الاصطلاح: علم نزول الآيات وشؤونها وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكيّتها ومدنيّتها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصّها وعامّها، ومطلقها ومقيّدتها، ومجملها ومفصّلها، وحلالها وحرامها، ووعدّها ووعدّها، وأمرها ونهيها، وعبرها وأمّثالها.⁽¹⁰⁾

8- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، ط2، 1422هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ج2، ص163.

9- فضل حسن عباس، التفسير أساسياته واتجاهاته، ط1، 1426، مكتبة دنديس، عمان الأردن، ص107. بتصرف يسير.

10- الزركشي، البرهان، ج2، ص163-164. السيوطي، جلال الدين بن عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتيان في علوم القرآن،

1424هـ دار الكتب العلمية، بيروت، ج2، ص347-348.

2. وقال أبو حيان: التفسير علم يُبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها

الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تُحمل عليها حالة التركيب وتتمّات ذلك.⁽¹¹⁾

3. وقال الزركشي: التفسير علم يُفهم به كتاب الله المتزلّ على نبيّه محمد صلى الله عليه

وسلم، وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحِكَمِهِ واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو

والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات ويحتاج إلى علم أسباب التزول

والناسخ والمنسوخ.⁽¹²⁾

والملاحظ من هذه التعريفات أنّها تتحدث عن تفصيلات ومباحث التفسير وعن

موارده ومصادره، أكثر مما تتحدث عن تعريفه تعريفا يدل على طبيعته.⁽¹³⁾

4. وعرفّه بعضهم بأنّه: علم يُبحث فيه عن أحوال القرآن المجيد من حيث دلالاته على

مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية.⁽¹⁴⁾

وهذه التعريفات تتفق كلّها على أنّ علم التفسير: علمٌ يُبحث عن مراد الله بقدر الطاقة

البشرية فهو شامل لكل ما يتوقف عليه فهم المعنى وبيان المراد.⁽¹⁵⁾

وقد مال الدكتور صلاح الخالدي في كتابه التفسير والتأويل في القرآن إلى جزء من

التعريف الذي ذكره الإمام الزركشي حيث يقول: التفسير هو علم يُفهم به كتاب الله المتزلّ

على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحِكَمِهِ.⁽¹⁶⁾

11- السيوطي، الإتقان، ج2، ص347-348.

12- المرجع السابق، ص347-348.

13- صلاح عبد الفتاح الخالدي، التفسير والتأويل في القرآن الكريم، ط1، 1416هـ، دار النفائس، عمان، الأردن، 27.

14- محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، 1424هـ، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد- المملكة العربية

السعودية، ج1، ص15.

15- المرجع السابق، ج1، ص16.

16- الخالدي، التفسير والتأويل في القرآن، ص28.

5. قال الجرجاني في التعريفات: وتعريف التفسير في الشرع: توضيح معنى الآية وشأنها وقصتها والسبب الذي نزلت فيه بلفظ يدل عليه دلالة ظاهرة.⁽¹⁷⁾

6. وقال ابن عاشور في التحرير والتنوير: التفسير اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن وما يستفاد منها باختصار أو توسع.⁽¹⁸⁾

وفي نهاية الكلام في هذا المطلب حول التعريف الاصطلاحي للتفسير لا بد من ذكر رأي أورده عدد من العلماء والمفسرين في شأن التفسير وهل هو علم له قواعده المنضبطة حتى يكون له تعريف يُتَكَلَّفُ أو أنه من قبيل المسائل الجزئية؟

يرى بعض العلماء أن التفسير ليس من العلوم التي يُتَكَلَّفُ لها حد لأنه ليس قواعد أو ملكات ناشئة من مزاوله القواعد كغيره من العلوم التي أمكن لها أن تشبه العلوم العقلية ويكتفى في إيضاح التفسير بأنه: بيان كلام الله، أو أنه المبين لألفاظ القرآن ومفهوماتها.

ويرى بعض آخر منهم أن التفسير من قبيل المسائل الجزئية أو القواعد الكلية أو الملكات الناشئة من مزاوله القواعد فيُتَكَلَّفُ له التعريف فيذكر في ذلك علوم أخرى يُحتاج إليها في فهم القرآن كاللغة والصرف والنحو والقراءات وغير ذلك.⁽¹⁹⁾

17- الجرجاني، التعريفات، ص87.

18- ابن عاشور: محمد الطاهر، التحرير والتنوير، ط1، 1420هـ، مؤسسة التاريخ، بيروت- لبنان، ج1، ص11.

19- الذهبي، التفسير والمفسرون، ج1، ص14.

المطلب الثاني: تعريف التأويل لغة واصطلاحاً:

أولاً: التأويل في اللغة:

التأويل مصدر على وزن "تفعيل" وفعله الماضي رباعي، وهو "أَوَّل" تقول: أَوَّل يؤوِّل تأويلاً، وجذر الكلمة الثلاثي هو أَوَّل.

قال ابن فارس: "أول" له أصلان: ابتداء الأمر، وانتهاءه، أما الابتداء فهو الأول: وهو مبتدأ الشيء، والمؤنثة منه الأولى والجمع "أوليات" وأوائل، تقول العرب: (خذ هذا أَوَّل ذات يدين) (وأَوَّل ذي أَوَّل) (وأَوَّل أَوَّل): أي قبل كل شيء.

وأما الانتهاء وهو الأصل الثاني: الأيِّل: وهو الذكر من الوعول والجمع أيائل، وإنما سمي أيَّيلاً لأنه يؤوِّل إلى الجبل يتحصَّن، وقولهم: آل اللبَن أي خثر من هذا الباب، وذلك لأنه لا يخثر إلا آخر أمره.

وآل يؤوِّل بمعنى رجع، قيل: (أَوَّل الحكم إلى أهله) أي أرجعه وردّه إليهم.

والإيالة هي السياسة من هذا الباب أيضاً لأن مرجع الرعيّة إلى راعيها، قيل (آل الرجلُ رعيته يؤولها) إذا أحسن سياستها. (20)

وعَلَّق السيوطي في الإتقان على هذا المعنى فقال: فكأن المؤوِّل للكلام ساسه ووضع المعنى في موضعه. (21)

20- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج1، 158-163. بتصرف واختصار.

21- السيوطي، الإتقان، ج2، ص346.

نعود إلى كلام ابن فارس، حيث يقول: وكذلك "آل الرجل": أهل بيته من هذا الباب لأنه إليه مآلهم وإليهم مآله.

ومن هذا الباب أيضا تأويل الكلام: وهو عاقبته وما يؤول إليه، قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾^(٥٣) الأعراف: ٥٣. يقول: ما يؤول إليه في وقت بعثهم ونشورهم.⁽²²⁾

إن ابن فارس يرى أن للأول أصليين: الابتداء والانتهاء، وفي الحقيقة هما متقاربان جدا، إذ إن كلا منهما طرف في الأمر فالأول بدايته والآخر نهايته وهو موصول بين نقطتي البداية والنهاية.⁽²³⁾

وفي لسان العرب ما خلاصته: الأول الرجوع وأول إليه الشيء رجعه إليه، وأُلت عن الشيء: ارتددت. وأوّل الكلام وتأوّل: دبّره وقدّره، وأوّله وتأوّل: فسّره.

وقوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾^(٣٩) يونس: ٣٩: أي لم يكن معهم علم تأويله، وهذا دليل على أن علم التأويل ينبغي أن ينظر فيه، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضي الله عنه: "اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل"⁽²⁴⁾

وكلام ابن منظور هذا يوحي بأنّ التأويل: إرجاع اللفظ إلى معناه ضمن قواعد معينة تكون في نهايتها علما خاصا مستقلا، فالتأويل إذاً هو الإرجاع والرد.

22- ابن فارس، مقاييس اللغة، ج1، ص158-163.

23- الخالدي، التفسير والتأويل في القرآن، ص30.

24- ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص264-270. بتصرف واختصار. والحديث أخرجه أحمد في مسنده ج4، 225، رقم 2397،

وعلق عليه الشيخ شعيب بقوله: إسناده قوي على شرط مسلم ورجاله ثقات رجال الشيخين.

ثم يقول ابن منظور بعد هذا: يقال: أُلْتُ الشيءُ أُؤوِّلهُ: إذا جمعته وأصلحته، فكأنَّ التأويل جمعُ معاني ألفاظٍ أشكلت بلفظ واضحٍ لا إشكال فيه. تقول العرب: أوَّلَ اللهُ عليك أمرك: أي جمعه، ويقال لمن أضل حاجته: أوَّلَ اللهُ عليك: أي رد عليك ضالَّتكَ وجمعها لك ويقال: تأولت في فلان الأجر: إذا تحرّيته وطلبته. (25)

وفي المفردات: التأويل الرجوع إلى الأصل، ومنه الموثل (26)، للموضع الذي يرجع إليه، وذلك هو ردُّ الشيء إلى الغاية المرادة منه علما كان أو فعلا ففي العلم نحو: قول تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ آل عمران: ٧، وفي الفعل: قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ الأعراف: ٥٣، أي: بيانه الذي غايته المقصودة منه، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ النساء: ٥٩، قيل: أحسن معنى وترجمة، وقيل: أحسن ثوابا في الآخرة. (27)

وهذا مثل كلام الجرجاني في التعريفات حيث قال: التأويل في الأصل الترجيع. (28)

ويبدو أن صاحب التوقيف قد تبع الراغب فقال: التأويل رد الشيء إلى الغاية المرادة منه قولاً كان أو فعلاً. (29)

25- المرجع السابق، ج 1، 264-270، بتصرف واختصار.

26- جذر هذه الكلمة (وأل) وليس (أول).

27- الراغب، المفردات، ص 99-100.

28- الجرجاني، التعريفات، ص 72.

29- المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص 156-157، باختصار.

وأما الكفوي في الكليات فيقول: التأويل في اللغة من (الأوّل) والتضعيف للتعدية، أو من (الأيل) وهو الصرف والتضعيف للتكثير. (30)

وهذا شبيه بما في البرهان حيث يقول: التأويل أصله من المأل وهو العاقبة والمصير، أوّلته قال: أي صرفته فانصرف، فكأن التأويل: صرف الآية إلى ما تحتمله من المعاني. (31)

وقد رأينا من خلال استعراض أقوال العلماء في تعريف التأويل ورده إلى جذره اللغوي تقارباً واضحاً بين (الأول والوأل) كما رأينا سابقاً بين (الفسر و السفر)، يُستوحى ذلك من كلام الراغب عندما جعل الموئل من الأول، فهذا دليل على ما بينهما من تقارب في المعنى فهما نتاج اشتقاق أكبر

● فالأول: الرجوع والرد والانتفاء والعاقبة.

● والوأل: المرجع والمنجى والملجأ.

قال ابن فارس: الوأل كلمة تدل على تجمع والتجاء، قال تعالى: ﴿بَلْ لَّهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ

يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً﴾ (٥٨) الكهف: ٥٨. (32)

وفي عمدة الحفاظ يقال: وأل زيد من العدو: إذا نجا منه، وأل فلان إلى فلان: أي لجأ إليه. (33)

30- الكفوي، الكليات، ص261.

31- الزركشي، البرهان، ج2، 164-165.

32- ابن فارس، مقاييس اللغة، ج6، ص79.

33- السمين الحلي، أحمد بن يوسف، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، ط1، 1414هـ، دار الكتب، بيروت، لبنان، ج4، ص318.

إذا فالتقارب واضح وكبير بين الجذرين فكلاهما يدل على معنى الرجوع والانتهاه والعاقبة.

ثانياً: التأويل في الاصطلاح:

لقد امتد الكلام بين العلماء كثيراً في تحديد معنى التأويل اصطلاحاً وتعددت آراؤهم تبعاً لاختلافهم في التعبير واللفظ وكذلك لاختلافهم في المعنى المقصود الذي يراد من خلاله تحديد المعنى للتأويل بين علوم التفسير والكلام والأصول.

وقد ذكر كثير من المتأخرين هذه الآراء ورتبها حسب فهمه لها وهي مبسطة في كتاب التفسير والمفسرون للذهبي⁽³⁴⁾ والتفسير والتأويل في القرآن للدكتور صلاح الخالدي⁽³⁵⁾ ولذلك سأقتصر على ذكر هذا الآراء وربطها وترتيبها ما أمكن وحسب فهمي القاصر لها والله ولي التوفيق.

قال السبكي في جمع الجوامع: التأويل هو حمل الظاهر على المحتمل المرجوح فإن حمل لدليل فصحيح أو لما يُظن دليلاً فاسداً أو لا شيء فلعب لا تأويل.

وهذا هو الذي اختاره صاحب التوقيف وأردفه بقوله: وقال ابن الكمال: التأويل - أي في التفسير - صرف الآية عن معناها الظاهر إلى معنى تختمله إذا كان المحتمل الذي يراه موافقاً للكتاب والسنة كقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ الأنعام: ٩٥ إن أراد به

34- ج 1، ص 17-18.

35- ص 33-36.

إخراج الطير من البيضة كان تفسيراً، أو إخراج المؤمن من الكافر أو العالم من الجاهل كان تأويلاً. (36)

وهو أيضاً قريب جداً من الذي قاله البغوي في مقدمة تفسيره: فأما التأويل فهو صرف الآية إلى معنى محتمل يوافق ما قبلها وما بعدها غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط. (37) وهو ذاته الذي اختاره الزركشي في البرهان. (38)

وهو كذلك قريب من الذي اختاره الجرجاني في التعريفات حيث قال: والتأويل في الشرع صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله إذا كان المحتمل الذي يراه موافقاً للكتاب والسنة (39) ثم ذكر المثل المذكور آنفاً في التوقيف.

وقال الخازن في مقدمة تفسيره: التأويل بيان المعاني والوجوه المستنبطة الموافقة للفظ الآية. (40)

ولعل أدق التعريفات وأكثرها ضبطاً وأشملها للمعاني المحتملة للتأويل كما ذكر ذلك الدكتور أحمد فرحات في كتابه في علوم القرآن (41) والدكتور صلاح الخالدي (42) هو تعريف

36- المناوي، التوقيف، ص156-157.

37- البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء، معالم التنزيل، ط1، 1415هـ، دار الكتب العلمية، لبنان، مطبوع إلى جانبه تفسير الخازن، ج1، ص15-20.

38- الزركشي، البرهان، ج2، ص164-165.

39- الجرجاني، التعريفات، ص72.

40- الخازن، علاء الدين علي بن محمد، لباب التأويل في معاني التنزيل، ط1، 1415هـ، دار الكتب العلمية، لبنان، مطبوع إلى جانبه معالم التنزيل للبغوي، ج1، ص18.

41- أحمد حسن فرحات، في علوم القرآن عرض ونقد وتحقيق، ط1، 2001م، دار عمار، الأردن، ص207-210.

42- الخالدي، التفسير والتأويل في القرآن، ص33-36.

الراغب الأصفهاني في المفردات حيث يقول: التأويل هو رد الشيء إلى الغاية المرادة منه علما كان أو فعلا. (43)

المطلب الثالث: الفرق بين التفسير والتأويل:

تشعب القول وامتد بين العلماء في التفريق بين التفسير والتأويل ولا بأس بذكر هذه الأقوال وما ورد عليها من تعليقات ذكرها كثير من المعاصرين كالشيخ الذهبي والأستاذ الدكتور فضل عباس والدكتور صلاح الخالدي.

1. قال أبو عبيدة وطائفة من العلماء أن التفسير والتأويل بمعنى واحد وهو كشف المراد عن المشكل (44)

وهذا الرأي ذكره الكفوي في الكليات (45) وقد ذكر ذلك الزركشي في البرهان ولكنه ضعفه وأخذ بتغايرهما. (46)

وقد ختم الدكتور فضل عباس الكلام في مبحث التفسير والتأويل بقوله: على أن كلتا الكلمتين في أيامنا بدأت تحل محل صاحبتها، بل إن المفسرين الأقدمين في كتبهم استعملوا الكلمتين فبعضهم سمي مؤلفه تأويلا كما هو شأن الزمخشري والبيضاوي، وبعضهم سماه تفسيرا. (47)

43- الراغب، المفردات، ص 99-100.

44- السيوطي، الإقتان، ج 2، ص 346.

45- الكفوي، الكليات، ص 261.

46- الزركشي، البرهان، ج 2، ص 164-165.

47- فضل عباس، التفسير أساسياته واتجاهاته، ص 112.

2. التفسير أعمُّ من التأويل وأكثر استعماله في الألفاظ ومفرداتها، وأكثر استعمال التأويل في المعاني والجمال، وأكثر ما يستعمل في الكتب الإلهية، والتفسير يستعمل فيها وفي غيرها. فالتفسير يستعمل في غريب الألفاظ كالبحيرة والسائبة وفي تبين المراد وشرحه، كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (٤٣) البقرة: ٤٣، ويستعمل في كلام مضمَّن بقصة لا يمكن تصويره إلا بمعرفتها كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ (٢٧) التوبة: ٣٧.

والتأويل يستعمل مرة عاما وأخرى خاصًا نحو الكفر المستعمل تارة في الجحود المطلق وتارة في جحود الباري خاصة، والإيمان يستعمل في التصديق المطلق تارة وفي تصديق دين الحق تارة، وإما في لفظ مشترك بين معان مختلفة نحو: لفظ (وجد) المستعمل في (الجدة) و(الوجد) و(الوجود).⁽⁴⁸⁾

3. التأويل أعمُّ من التفسير بجريانه في الكلام وغيره، يقال: تأويل الكلام كذا وتأويل الأمر كذا أي ما يؤولان إليه، قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ (٧) آل عمران: ٧. هذا في الكلام، وقال في الأمر ونحوه: ﴿فَإِنْ نَنْزَعْنَهُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (٥٩) النساء: ٥٩. أي: أحسن مآلا وعاقبة. وكذا قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ (٥٣) الأعراف: ٥٣. أي: مآل القرآن وما تضمَّنه من الوعيد وذلك بخلاف التفسير فإنه يخصّ الكلام

48- الزركشي، البرهان، ج2، ص164-165، السيوطي الإتيان، ج2، ص346، التفسير والمفسرون، ج1، ص19-20. احمد حسن فرحات، في علوم القرآن، ص210، صلاح الخالدي، التفسير والتأويل في القرآن، ص172-173.

ومدلوله، يقال: تفسير الكلام كذا والقضية كذا ولهذا قال بعض المفسرين: التفسير بيان موضوع اللفظ، والتأويل بيان المراد به، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (٣٣) الفرقان: ٣٣، من هذا القبيل. نعم يجوز استعمال أحدهما مكان الآخر مجازا على هذا القول - وهو الأظهر - إذ الأصل عدم الترادف عند من يثبته. (49).

4. قال الماتوريدي: التفسير: القطع على أن المراد من اللفظ هذا والشهادة على الله أنه عنى باللفظ هذا، فإن قام دليل مقطوع به فصحيح، وإلا فتفسير بالرأي وهو المنهي عنه، والتأويل ترجيح أحد المحتملات بدون القطع والشهادة على الله. (50)

5. قال أبو طالب الثعلبي: التفسير: بيان وضع اللفظ إما حقيقة وإما مجازا كتفسير الصراط بالطريق، والصيب بالمطر، والتأويل: تفسير باطن اللفظ، مأخوذ من الأول، وهو الرجوع لعاقبة الأمر، فالتأويل إخبار عن حقيقة المراد، والتفسير إخبار عن دليل المراد، لأن اللفظ يكشف عن المراد والكاشف دليل، مثاله قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِيَالْمِرْصَادِ﴾ (١٤) الفجر: ١٤، تفسيره: أنه من الرصد يقال: رصدته: أي رقبته، المرصاد مفعال منه، وتأويله: التحذير من التهاون بأمر الله تعالى والغفلة عن الأهبة والاستعداد للعرض عليه، وقواطع الأدلة تقتضي بيان المراد منه على خلاف وضع اللفظ في اللغة.

49- أحمد حسن فرحات، في علوم القرآن، ص212، خالد عبد الرحمن العك، أصول التفسير وقواعده، ط2، 1406هـ، دار النفائس بيروت، ص53. وكلاهما عزياه إلى الطوفي صاحب الإكسير في علم التفسير.

50- السيوطي، الإتقان، ج2، ص346، التفسير والمفسرون، ج1، ص20، أحمد فرحات، في علوم القرآن، ص211. الخالدي، التفسير والتأويل في القرآن، ص176-177.

والمشهور عند المتأخرين أن التفسير: هو بيان المعاني التي تستفاد من وضع العبارة، والتأويل: هو بيان المعاني التي تستفاد بطريق الإشارة. (51)

6. قال بعضهم: التفسير ما يتعلق بالرواية والتأويل ما يتعلق بالدراية.

وهذا الفرق يؤيده كلام أبي نصر الكشيري بأن التفسير مقصور على الاتباع والسماع، والاستنباط مما يتعلق بالتأويل. وأيضا ما ذكر في الإتقان حيث قال: وقال قوم: ما وقع مبيناً في كتاب الله، ومعيناً في صحيح السنة، سمي تفسيراً لأن معناه قد ظهر ووضح وليس لأحد أن يتعرض إليه باجتهاد ولا غيره، بل يحمله على المعنى الذي ورد ولا يتعداه، والتأويل ما استنبطه العلماء العالمون لمعاني الخطاب الماهرون في آلة العلوم. (52)

وهذا هو الرأي الذي مال إليه الشيخ الذهبي رحمه الله تعالى في كتابه التفسير والمفسرون: والذي تميل إليه النفوس من هذه الأقوال هو: أن التفسير ما كان راجعاً إلى الرواية والتأويل ما كان راجعاً إلى الدراية. (53)

وقبل الخوض في ترجيح أيٍّ من التعريفات السابقة والأقوال آنفة الذكر فإنه ينبغي علينا للفصل في أيّها أرجح؛ الرجوع إلى كتاب الله تعالى، فهو خير ما يعين ويغني في ذلك حيث ذكرت فيه الكلمتان على النحو الآتي:

أما التفسير فقد ورد في الكتاب مرة واحدة في معرض الرد على الكافرين وهم يثيرون الشبهات حول القرآن، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً

51- السيوطي، الإتقان، ج2، ص346، التفسير والمفسرون، ج1، ص21، أصول التفسير وقواعده، ص52.

52- الزركشي، البرهان، ج2، ص164-165، السيوطي، الإتقان، ج2، ص347، الذهبي، التفسير والمفسرون، ج1، ص20.

53- الذهبي، التفسير والمفسرون، ج1، ص22.

وَحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ

بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَقْوِيرًا ﴿٣٣﴾ الفرقان: ٣٢ - ٣٣، أي: لا يأتونك بمثل مما يحيك في صدورهم إلا رددناه بأحسن بيان. (54)

أما كلمة التأويل فقد وردت في الكتاب العزيز سبع عشرة مرة في سبع سور وهي:

- سورة يوسف: وردت ثماني مرات.
- سورة الأعراف: وردت فيها مرتين.
- سورة آل عمران: وردت فيها مرتين.
- سورة الكهف: وردت فيها مرتين.
- سورة النساء: وردت فيها مرة واحدة.
- سورة يونس: وردت فيها مرة واحدة.
- سورة الإسراء: وردت فيها مرة واحدة. (55)

وقد وردت في مواضع متعددة وسياقات مختلفة:

1. ما يتصل بالمتشابه، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ

هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ

الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا

بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ آل عمران: ٧.

54- فضل عباس، التفسير أساسياته واتجاهاته، ص107، وانظر: الخالدي: التفسير والتأويل في القرآن، ص39-40.

55- الخالدي، التفسير والتأويل في القرآن. ص42-43.

2. ما يتصل بتأويل الرؤيا، قال تعالى: ﴿وَقَالَ يَتَابَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ

جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ﴾ يوسف: ١٠٠، وفي السورة نفسها في رؤيا الملك: ﴿وَمَا

نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ۖ﴾ يوسف: ٤٤.

3. في تأويل الأعمال، وما يقصد منها، قال تعالى حاكياً عن العبد الصالح يخاطب

موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ۖ﴾

الكهف: ٧٨، وبعد أن شرح له ذلك شرحاً تاماً قال: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ

صَبْرًا ۖ﴾ الكهف: ٨٢.

4. وردت كلمة التأويل في صحّة ما ينبئ عليه القرآن وأنه أمر محقق الوقوع، قال

تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ۖ﴾ يونس: ٣٩.

وإذا تأملنا هذه الآيات الكريمة نستطيع أن ندرك الدقة في الفرق بين التفسير والتأويل

من تعبيرات القرآن نفسها، فالمواضع التي عبّر فيها بالتأويل بحاجة إلى الرويّة وإعمال الفكر

وإلى عمليّة عقليّة، ولا أدلّ على ذلك من استعمال كلمة التأويل في شأن المتشابه، وتأويل

الرؤى وقصة موسى عليه السلام وما حدث بينه وبين العبد الصالح الخضر. (56)

من خلال ما ورد ذكره من كلام العلماء في تعريف المصطلحين وبيان الفرق بينهما

ومن خلال نظرهم أيضاً في آيات الله الواردات بهذا السياق ندرك قول الأستاذ الدكتور أحمد

فرحات: بناء على كل ما سبق نرى أنه لا تعارض بين الأقوال وأن كلا منها يعبر عن نوع

56- فضل عباس، التفسير أساسياته واتجاهاته، ص180.

من الأنواع التي تنطوي تحت التفسير أو التأويل، فالاختلاف بين العلماء في هذا اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد. (57)

وللشيخ صلاح الخالدي كلام نفيس في التفريق بين التفسير والتأويل حيث رأى أن فهم القرآن وإدراك ما فيه واستخراج دلالاته؛ لا بد أن يكون على مرحلتين متدرجتين، الأولى: تفسير القرآن، والثانية: تأويل القرآن.

المرحلة الأولى: تفسير القرآن: يجب على كل مفسر لكتاب الله تعالى أن يبدأ بشرح الألفاظ وأن يعتمد في ذلك على الرواية والمأثور ويورد ما في معناها من آيات أخرى وأحاديث نبوية صحيحة ومن أقوال الصحابة والتابعين وأسباب النزول وهو في ذلك كله يفسر ظاهر الآية ويورد المعنى القريب المتبادر منها.

والمرحلة الثانية: تأويل القرآن: فمن خلال ما أدركه في المرحلة الأولى يمعن النظر في الجمل والتراكيب ويعتمد في ذلك على التدبر وإعمال العقل وتقليب وجوه الرأي والنظر وعليه أن يلتفت إلى اللطائف والإشارات والإيحاءات ويستخرج الحقائق والدلالات وهو في ذلك يلحظ المعنى البعيد غير المتبادر للذهن.

ولعل في هذا رجوعاً واضحاً إلى المعنى اللغوي والاشتقائي لكلا اللفظتين فالتفسير هو الكشف والبيان، والتأويل هو الرد والصرف والسياسة. (58)

57- أحمد فرحات، في علوم القرآن، ص214-215.

58- الخالدي، التفسير والتأويل في القرآن. ص179-183. بتصرف واختصار.

المبحث الثاني

أنواع التفسير واتجاهاته

وفيه مطلبان

المطلب الأول: أنواع التفسير

اعتاد العلماء في ذكرهم أنواع التفسير على تقسيمه إلى نوعين اثنين هما : التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي، وسيكون القول في هذا المطلب على نحو ما ذكره وما ارتآه كثير من المعاصرين المحدثين، مثل الزرقاني وصبحي الصالح ومنّاع القطان وغيرهم على هذا الهيئة من التقسيم، ثم أُورِدُ الرأي الذي ذكره الشيخ فضل عباس وهو يناقش التقسيم السابق ثم يقترح البديل وهو ما مال إليه الباحث.

أولاً: التفسير بالمأثور: هو التفسير بالرواية ، ويشمل كل ما جاء في القرآن نفسه من البيان والتفصيل لبعض آياته وما نقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم وما نقل عن الصحابة رضوان الله عليهم وما نقل عن التابعين من كل ما هو بيان وتوضيح لمراد الله تعالى. (59)

1. تفسير القرآن بالقرآن: لأن القرآن يفسر بعضه بعضاً ولأن الله تعالى هو الذي أنزله

وهو أعلم بما أراد وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴾ الطارق: ٢ فسر

الطارق بقوله في الآية الثانية: ﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ الطارق: ٣

2. تفسير القرآن بالسنة النبوية: لأن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي كلّفه الله بيان

هذا القرآن ومعانيه، وهو أعلم الناس بتفسير القرآن وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ

لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴿٦٠﴾ الأنفال: ٦٠. فقد فسّر النبي صلى الله عليه وسلم
القُوَّةَ بالرمي. (60)

3. تفسير القرآن بما ورد عن الصحابة: لأن الصحابة هم من نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهم من لغتهم العربية الفصيحة ولهم من دقة أبصارهم وعظمة استنباطهم ما جعلهم متميزين في هذا الشأن ومعايشتهم لأحوال التزويل ومعرفتهم بأسباب التزول ، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَايِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ ﴿٤٣﴾ النساء: ٤٣، فقد صح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه فسّر الملامسة بالجماع. (61)

4. تفسير القرآن بموقوف التابعين: والمراد: التابعين الذين اعتنوا بأخذ التفسير عن الصحابة رضي الله عنهم ، لأن التابعين خير الناس بعد الصحابة وأسلم من الأهواء ممن بعدهم، ولم تكن اللغة العربية قد تعيّرت كثيراً في عصرهم فكانوا أقرب إلى الصواب في فهم القرآن من غيرهم لأنهم تلقوه عن الصحابة غالباً. (62)

ورأي الدكتور صبحي الصالح رحمه الله قريب من هذا دون أن يتعرض للتفصيل والمناقشة أو التقييم فقد ذكر الأطوار التي مر بها التفسير من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف كان هو الشارح الأول لكتاب الله يبين للناس ما نُزل إليهم، ثم ما

60- فقد روى الإمام مسلم رحمه الله في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي وذم من علمه ثم نسيه، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول: "أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ"، رقم: 1917.

61- رواه الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه ، كتاب النكاح، باب وريائكم اللاتي في بيوتكم من نسائكم،

62- صفية شمس الدين، المدخل إلى دراسة علوم القرآن، ط1، 2006م، مركز البحوث في الجامعة الإسلامية بماليزيا، كوالالمبور، ص300-301، وانظر: محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ط1، 1418هـ ، تحقيق بديع السيد اللحام، دار قتيبة، ج2، ص17-18. وانظر الزركشي ، البرهان، ج2، ص173-176.

كان من صحابته رضوان الله عليهم بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، وكيف برز فيهم من برز، وعلى رأسهم ابن عباس رضي الله عنهما، ثم ما تلقاه التابعون الأوائل من أشياخهم من الصحابة في الأمصار الإسلامية المختلفة، حتى وصل إلى تابعيهم الذين كانوا بدورهم إرهاساً لابن جرير الطبري، فعُدَّ كل هذه الأطوار تفسيراً بالمأثور، ولكنَّه ذكر بعد ذلك ما تعرَّض له هذا النوع من الاختلاط بغير الصحيح من زنادقة اليهود والفرس وما حاولوه من دسٍّ على الإسلام وتشويهٍ لمعلمه، فكان لزاماً على المفسِّر بالمأثور أن يتحرَّى الرواية الدقيقة ويحتاط في ذلك أشدَّ الاحتياط.⁽⁶³⁾

وهو كذلك ما أورده الشيخ مناع القطان حيث قال: التفسير بالمأثور هو الذي على صحيح المنقول من تفسير القرآن بالقرآن، أو بالسنة لأنها جاءت مبيِّنةً لكتاب الله تعالى، أو بما روي عن الصحابة لأنهم أعلم الناس بكتاب الله، أو بما قاله كبار التابعين لأنهم تلقوا ذلك غالباً عن الصحابة. وقد نبَّه كذلك إلى أنه يجب الاحتياط من ذكر الروايات وتمييزها عن الإسرائيلية مما لا يصح في النقل.⁽⁶⁴⁾

ويلحظ على هذه الآراء أنها لم تناقش ما ذهب إليه الأقدمون في اعتبارهم لأقسام التفسير بالمأثور واعتبارهم أن كل ما جاء عن السلف الصالح يعتبر من قبيل المأثور حتى ولو كان بعضه إنما صدر عن رأي خالص لهم.

وقد ناقش الزرقاني في كتابه مناهل العرفان القسمين الأخيرين حيث قال: القسم الثالث وهو بيان القرآن بما صحَّ ورودُه عن الصحابة رضوان الله عليهم، قال الحاكم في المستدرک: إن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتزيل له حكم المرفوع وكذلك أطلق الحاكم وقيدَه

63- صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ط17، 1988م، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ص289-291. بتصرف واختصار.

64- مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، ط3، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص347-351. باختصار شديد.

بعضهم بما كان في بيان التزول ونحوه مما لا مجال للرأي فيه وإلا فهو من الموقوف. وأما ما ينقل عن التابعين ففيه خلاف العلماء:

فمنهم من اعتبره من المأثور لأنهم تلقوه من الصحابة غالباً ومنهم من قال إنه من التفسير بالرأي، وفي تفسير الطبري كثير من النقول عن الصحابة والتابعين في بيان القرآن الكريم بيد أن الحافظ ابن كثير يقول: إن أكثر التفسير بالمأثور قد سرى إلى الرواة من زنادقة اليهود والفرس ومسلمة أهل الكتاب.

ثم يقول بعد أن يذكر المفسرين من التابعين: يلاحظ على ما روي عن التابعين اعتبارات مهمة تثير الطعن فيه وتوجه النقد إليه:

1. أنهم لم يشاهدوا عهد النبوة ولم يتشرفوا بأنوار الرسول صلى الله عليه وسلم فيغلب على الظن أن ما يروى عنهم من تفسير القرآن إنما هو من قبيل الرأي لهم فليس له قوة المرفوع إلى النبي عليه الصلاة والسلام.

2. أنه يندر فيه الإسناد الصحيح.

3. اشتماله على الإسرائيليات والخرافات التي انسابت إليه تارة من زنادقة الفرس وأخرى من بعض مسلمة أهل الكتاب، إما بحسن نية وإما بسوء نية.⁽⁶⁵⁾

كذلك فعل أحمد فرحات فقد تعرض للتفصيل والمناقشة والترجيح، كما ذكر الرأي الذي يعتبر أن كل ما ورد عن السلف هو من باب التفسير بالمأثور، ثم عقب عليه بقوله: إن المصدرين الأولين وهما تفسير القرآن بالقرآن وتفسيره بالسنة فمجمع عليهما عند أهل التفسير إذا كان الحديث النبوي صحيحاً.

65- الزرقاني، مناهل العرفان، ج2، ص17-30. بتصرف واختصار شديد.

وأما تفسير القرآن بقول الصحابي؛ فإنه إذا كان مما لا مجال لرأي فيه فله حكم الحديث المرفوع، وإذا كان فيه مجال للرأي فيمكن أن يكون باجتهاد من الصحابي ويمكن أن يكون راجعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم، لكن إذا أجمع الصحابة على قول، دل ذلك على أنهم سمعوه من النبي صلى الله عليه وسلم وفي هذه الحالة لا يخالف.

أما تفسير القرآن بقول التابعين ففيه اختلاف بين العلماء: هل هو من قبيل التفسير بالمأثور أو هو من قبيل التفسير بالرأي؟ والذي نرجّحه في ذلك؛ أن ما وافق فيه قول التابعي قول الصحابي فهو من قبيل المأثور، وما خالف فيه التابعي الصحابي كان من قبيل الرأي.⁽⁶⁶⁾

وللدكتور فضل عباس كلام آخر حيث يعرض ما سبق من آراء ويناقشها ثم يبيد بعض الملحوظات عليها، وفي ما ذكره شيء جديد عسى أن يكون إعادة نظر في هذه المسألة من جذورها.

فهو ابتداءً يقصر التفسير بالمأثور على ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أو ما كان له حكم المرفوع مما روي عن الصحابة رضوان الله عليهم ويشمل هذا أسباب التزول.

ويرى أن التفسير الأثري يقابل التفسير بالرأي، وأن الثاني ما فيه مجال للاجتهاد أما المأثور فليس كذلك، وهذا ينطبق على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ما كان له حكم المرفوع، أما ما روي عن الصحابة والتابعين مما هو اجتهاد منهم فهو ضمن دائرة الرأي.

66- أحمد فرحات، في علوم القرآن، 251-252. باختصار.

ويرى أيضا أن العلماء عدّوا من التفسير بالمأثور تفسير القرآن بالقرآن، وعلى هذا فالأقرب تفسير القرآن بالسنة، أما ما عدا هذين مما كان من اجتهادات الصحابة فلا يجب أن يعدّ من التفسير بالمأثور وكذلك ما كان من التابعين من اجتهادات.

ثم يفرق الشيخ بين الفهم العام لقرون الخيرية وبين قضية علمية تتصل بالقرآن الكريم وذكر عبارة ابن حيان (ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرأس والعين وما جاءنا عن الصحابة تحيّرنا فيه وما جاءنا من التابعين فهم رجال ونحن رجال) وهو كلام يفهم منه أنهم لم يكونوا يروون عن النبي والصحابة وإنما كانت هذه الروايات اجتهادات لهم فهي ليست ملزمة.

وبعد ذلك كله يورد بعض الملحوظات على هذا التقسيم تحت عنوان (ملحوظات على هذا التقسيم) فيقول: هذا هو الذي اشتهر عند القوم فلا نكاد نجد كاتباً من الذين عرضوا للتفسير وتاريخه وبخاصة في العصر الحديث إلا وقسم التفسير إلى تفسير بالمأثور وتفسير بالرأي، حتى لقد أضحت هذه القضية من المسلمات، ولعل مما ساعدهم على ذلك تفسير الإمام السيوطي (الدر المنثور في التفسير بالمأثور) حيث اشتمل كتابه على الروايات دون عرض اختلافات المفسرين ولنا على هذا التقسيم ملاحظ عدة:

أولاً: إن هذا المصطلح لم يكن معلوماً ومعروفاً في القرون الأولى وما بعدها حتى عند الذين كتبوا في علوم القرآن من المتقدمين وعلى هذا فهو مصطلح يخضع للبحث والتدقيق والنقد.

ثانياً: لم يتفقوا على ماهية هذا التفسير؛ فبعضهم وسّع دائرته ليشمل تفسير النبي عليه وآله الصلاة والسلام، وتفسير الصحابة رضي الله عنهم، وتفسير التابعين رحمهم الله، وآخرون لم

يدخلوا فيه تفسير التابعين، وهذا ما أشارت إليه عبارة أبي حيان رحمه الله في البحر المحيط،
وفئة ثالثة- وأنا منهم- جعلته خاصاً بما صحَّ عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

ثالثاً: إنهم جعلوا التفسير بالمأثور مقابل التفسير بالرأي مع أن ما روي عن الصحابة رضي الله
عنهم كان كثير منه ناشئاً عن الرأي والاجتهاد وكذلك بعض ما روي عن التابعين، فهذا ابن
عباس رضي الله عنهما يختلف مع الصحابة في بعض أحكام آيات الميراث ويختلف مع السيدة
عائشة في رؤية النبي صلى الله عليه وسلم ربه، وفي تفسير قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ
كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْ رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا

يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ الأنبياء: ٣٠ ، وردت عن الخبر روايتان إحداهما: أن السماوات والأرض كانتا
كتلة واحدة وهذه إحدى النظريات في نشأة الكون، والأخرى: أن السماوات كانت رتقا
ففتقها الله بالمطر، وإن الأرض كانت كذلك ففتقها الله بالنبات. ولا يرتاب أحد في أن هذا
اجتهاد من الخبر رضي الله عنه فهو تفسير بالرأي فكيف يمكن أن نعهده تفسيراً بالمأثور؟

ومثل هذا ما روي عن مجاهد رضي الله عنه في مخالفة المفسرين في بعض الآيات. إن
هذا التقسيم أعني بالمأثور وبالرأي لا يخلو من إشكالات متعددة منها ما تقدم ومنها ما
سيأتي.

رابعاً: إننا لا نقدر الصحابة رضوان الله عليهم قدرهم عندما نسلبهم القدرة على الاجتهاد
في فهم القرآن الكريم فنجعل كل ما روي عنهم روايات فهموها من الرسول الكريم صلى الله
عليه وسلم أو نقلوها عن أهل الكتاب، وهذا هو سيدنا علي رضي الله عنه وقد سئل: أترك
الرسول صلى الله عليه وسلم غير هذا الكتاب؟ يقول: لا، إلا فهما يعطيه الله رجلاً في

القرآن. أليس هذا الفهم للصحابة رضوان الله عليهم من قبيل التفسير بالرأي فلماذا يكون هناك إصرار على أن يعد من التفسير بالمأثور؟!

خامسا: لقد عدُّوا من التفسير بالمأثور تفسير القرآن بالقرآن، وتوسَّعوا في ذلك كثيرا، وهناك تفسيران كبيران، أحدهما للأستاذ عبد الكريم الخطيب رحمه الله وهو خمسة عشر جزءاً واسمه (التفسير القرآني للقرآن)، والثاني للشيخ الشنقيطي رحمه الله وهو في تسعة أجزاء واسمه (أضواء البيان في تفسير القرآن)، وهو عندما يذكر الآية الكريمة يذكر عشرات الآيات في تفسيرها وهذا أمر حريٌّ بالمناقشة لأنه يترتب عليه ما لا نقبله من دقة القرآن الكريم وينتج عليه اتحاد المعنى في آيات متعددة في سور كثيرة. (67)

ثم يذكر الشيخ التقسيم البديل المختار: نرى أن من الخير والدقة العلمية أن نقسم التفسير إلى تفسير بالنقل وتفسير بالرأي وإن شئت قلت: إلى منقول ومعقول أما التفسير المنقول فيشمل ما يلي:

1. ما صحَّ عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا لا معدل عنه وهو قليل نسبيا.

2. ما كان ناتجا عن اختلاف القراءات القرآنية الصحيحة.

3. ما كان تفسيراً لغوياً للفظ وذلك أن يحتمل اللفظ معنيين أو أكثر وهو المشترك سواء كان من الأضداد أم لم يكن. (68)

67- التفسير أساسياته واتجاهاته، ص 185-188.

68- التفسير أساسياته واتجاهاته، ص 188-189. ذكرت التقسيم البديل المختار هنا ولم اذكره حال انتهائي من القسمين: 1. لأنني لم أرد أن اعرض للمسألة مرتين؛ هنا عند الحديث عن التفسير بالمأثور، وأخرى عند الكلام عن التفسير بالرأي. 2. هذا الكلام يعرض بشكل رئيسي مسألة التفسير بالمأثور فالخلاف هذا واقع فيها وليس واقعا في مسألة التفسير بالرأي.

ثانياً: التفسير بالرأي

المراد بالرأي هنا الاجتهاد

فإن كان الاجتهاد موفقاً أي مستنداً إلى ما يجب الاستناد إليه بعيداً عن الجهالة والضلالة؛ فالتفسير به محمود، وإلا فمذموم.

والأمور التي يجب استناد الرأي إليها في التفسير نقلها السيوطي في الإتيان عن الزركشي فقال ما ملخصه: للناظر في القرآن لطلب التفسير مآخذ كثيرة أمهاتها أربعة: الأولى: النقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع التحرز عن الضعيف والموضوع.

الثانية: الأخذ بقول الصحابي مع ما مرّ مسبقاً من خلاف.

الثالثة: الأخذ بمطلق اللغة مع الاحتراز عن صرف الآيات إلا إلى ما يدل عليه الكثير من كلام العرب.

الرابعة: الأخذ بما يقتضيه الكلام ويدل عليه قانون الشرع.⁽⁶⁹⁾

فمن فسر القرآن برأيه أي باجتهاده ملتزماً بالوقوف عند هذه المآخذ معتمداً عليها فيما يرى من معاني كتاب الله؛ كان تفسيراً سائغاً جائزاً خليقاً بأن يسمى: التفسير الجائز أو التفسير المحمود، ومن حاد عن هذه الأصول وفسر القرآن غير معتمد عليها كان تفسيره ساقطاً مردولاً خليقاً بأن يسمى: التفسير غير الجائز أو التفسير المذموم. فالتفسير بالرأي الجائز يجب أن يلاحظ فيه الاعتماد على ما نقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان

69- الزركشي البرهان، ج2، ص173-180. بتصرف واختصار، الزرقاني، مناهل العرفان، ج2، ص59-60.

الله عليهم، مما ينير السبيل للمفسر برأيه وأن يكون صاحبه عارفا بقوانين اللغة خبيراً بأساليبها، وأن يكون بصيراً بقانون الشريعة حتى يتزل كلام الله على المعروف من تشريعه.

أما الأمور التي يجب البعد عنها في التفسير بالرأي فمن أهمها: التهجم على تبين مراد الله من كلامه على جهالة بقوانين اللغة أو الشريعة، ومنها: حمل كلام الله على المذاهب الفاسدة، ومنها الخوض في ما استأثر الله في علمه، ومنها القطع بأن مراد الله كذا من غير دليل، ومنها السير مع الهوى والاستحسان. ويمكن تلخيص هذه الأمور الخمسة في كلمتين اثنتين هما: الجهالة والضلالة.⁽⁷⁰⁾

بين المانعين والمجيزين في مسألة التفسير بالرأي

اختلف العلماء قديماً في التفسير بالرأي بين مجيز ومانع،⁽⁷¹⁾ وحديثاً أورد الباحثون الرأيين وأن الجائز من التفسير بالرأي هو على الشروط المذكورة آنفاً، وما كان مخالفاً لها فهو ممنوع مذموم.

وفي كلام ابن الأثير الجزري تعليقا على حديث "من قال في كتاب الله عز وجل برأيه فأصاب فقد أخطأ"⁽⁷²⁾ كفاية عن الخوض في آراء كلا الفريقين والرد عليها، يقول ابن الجزري:

70- الزرقاني، مناهل العرفان ، ج2، ص62.

71- انتهى هذا الخلاف قديماً ولم يبارح القرون الأولى، ولهذا لم يعرف لأحد بعد تلك القرون كلاماً ينهى فيه عن تفسير القرآن بالرأي، وهم يقصدون بالطبع الرأي الفاسد الخارج عن مراد الله تعالى، كما بينته في نهاية هذا المطلب.

72- الزرقاني، مناهل العرفان ، ج2، ص62، والحديث أخرجه أبو داود في سننه، ط1، 2004، دار الأفكار الدولية، عمان، في كتاب العلم، باب: الكلام في كتاب الله بغير علم، رقم: 3167، والترمذي في الجامع الكبير، ط2، 1998، دار الغرب الإسلامي، بيروت، بتحقيق: د. بشار عواد معروف، كتاب: أبواب تفسير القرآن، باب: ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، رقم: 2952.

النهي عن تفسير القرآن بالرأي لا يخلو إما أن يكون المراد به الاختصار على النقل المسموع وترك الاستنباط، أو المراد به أمر آخر، وباطل أن يكون المراد به: أن لا يتكلم أحد في القرآن إلا بما سمعه؛ فإن الصحابة رضي الله عنهم قد فسروا القرآن واختلفوا في تفسيره على وجوه، وليس كل ما قالوه قد سمعوه من النبي صلى الله عليه وسلم، وإن النبي صلى الله عليه وسلم دعا لابن عباس فقال: (اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل)⁽⁷³⁾ فإن كان التأويل مسموعا كالتزويل فما فائدة تخصيصه بذلك؟

وإنما النهي على أحد وجهين أحدهما: أن يكون له في الشيء رأي وإليه ميل من طبعه وهواه فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه ليحتج على تصحيح غلطه، ولو لم يكن له ذلك الرأي والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى، وهذا النوع يكون تارة مع العلم؛ كالذي يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته وهو يعلم أن ليس المراد بالآية ذلك ولكن يلبس على خصمه.

وتارة مع الجهل؛ وذلك إذا كانت الآية محتملة فيميل فهمه إلى الوجه الذي يوافق غرضه ويترجح ذلك الجانب برأيه وهواه فيكون قد فسر برأيه أي رأيه هو الذي حمّله على ذلك التفسير ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه.

وتارة يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلا من القرآن ويستدل عليه بما يعلم أنه ما أريد به، كمن يدعو إلى مجاهدة القلب القاسي فيقول: قال تعالى: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾^(١٧) ويشير إلى قلبه ويومئ إلى أنه المراد بفرعون وهذا الجنس قد استعمله بعض الوعاظ في المقاصد الصحيحة تحسينا للكلام وترغيبا للمستمع وهو ممنوع.

وقد استعمله الباطنية في المقاصد الفاسدة لتغريير الناس ودعوتهم إلى مذهبهم الباطل فيترلون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعاً أنها غير مرادة به. فهذه الفنون أحد وجهي المنع من التفسير بالرأي.

والوجه الثاني: أن يسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة، وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير، فمن لم يُحكم التفسير وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية كثر غلطه ودخل في زمرة من فسر القرآن بالرأي.

فالنقل والسماع لا بد منه في ظاهر التفسير أولاً ليتقي به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع التفهم والاستنباط، والغرائب التي لا تفهم إلا بالسماع كثيرة ولا مطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر. ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿وَعَايَنَّا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ الإسراء: ٥٩ ، معناه: آية مبصرة فظلموا بها أنفسهم بقتلها، فالناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة ولم تكن عمياء، ولا يدري بماذا ظلموا وأنهم ظلموا غيرهم أو أنفسهم، فهذا من الحذف والإضمار وأمثال هذا في القرآن كثير، وما عدا هذين الوجهين فلا يتطرق النهي إليه والله أعلم. (74)

74- ابن الأثير الجزري: مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الشيباني، ط1، 1418هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج2، 5-6، انظر بهذا المعنى: مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، 352-353. وأيضاً: مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، ص291-292. وأيضاً: مناهل العرفان، ج2، ص65-69. وأيضاً: إتيان البرهان، ج2، 243-245.

والخلاصة في الأمر: أنه قد تقرر لدى الفريقين أن التفسير بالرأي على قسمين: فما كان جاريا على موافقة كلام العرب ومناحيهم قي القول، مع موافقة الكتاب والسنة، ومراعاة سائر شروط التفسير؛ فهذا جائز لا شك فيه، وعليه يُحمل كلام المجيزين.

أما ما كان مخالفا لقوانين العربية، مناقضا لأدلة الشرع، غير مستوفٍ لشرائط التفسير فهذا هو مورد النهي ومحط الذم وما اتفق عليه الفريقان منعا ونهيا. (75)

المطلب الثاني: اتجاهات التفسير

عندما جاء نصر الله والفتح، ووطأت الأرض أكنافها للمسلمين، وأظلت راية الإسلام أمما وشعوبا لم تكن تعرف العربية ولكنها كانت على ثقافة في العلوم والفنون والفلسفة، وقد اختلطت هذه الأمم المفتوحة بتلك الأمم الفاتحة؛ حين ذلك كله انفتح الباب على مصراعيه وتوسعت العلوم، واحتلت الفلسفة حيزا كبيرا في عقول العلماء، وأصبح المنطق والجدل أداة من أدوات العلم، وسلاحا لا يمكن بغيره الدخول إلى قاعات الدرس وجلسات المعرفة، وتفرقت الأمة على مذاهب ونحل؛ بعضها من صميم العقيدة، وبعضها شط وانحرف، وآخرون خرجوا وابتعدوا، واختلف الناس في الحكم عليها، وأتبع كلٌ منهم ما وافق رأيه وهواه، واتسعت رقعة الخلاف، ولم يكن التفسير في معزل عن كل هذا؛ فدخل إليه كل غث وسمين، وصحيح وسقيم، وأصبح القرآن الكريم ميدانا للتجاذبات، وساحة مناسبة لبسط الآراء والحجج التي اضطبغت بسمة جدلية فلسفية؛ فتعددت لهذا كله أساليب العلماء في طرح تفسيره، وعرض أغراضهم المتنوعة من خلاله، تبعا للعلم الذي اهتم به صاحبه، والجانب الذي ركز عليه وبرع فيه. تقول الدكتورة بنت الشاطي رحمها الله في مقدمة كتابها

75- الذهبي، التفسير والمفسرون، ج1، 264-265، انظر: الراغب الأصفهاني، أبو القاسم، مقدمة جامع التفاسير مع تفسير سورة الفاتحة ومطالع البقرة، ط1، 1984، دار الدعوة، الكويت.

التفسير البياني للقرآن الكريم: وأنا أدع الكلام في هذا الشائع المعروف، لأشير إلى شوائب أخرى جاءت نتيجة لتباين أذواق المفسرين وعقلياتهم وبيئاتهم وأنماط شخصياتهم، في ذلك العالم الواسع العريض الذي امتدَّ من الصين والهند في أقصى المشرق، إلى مراکش والأندلس في أقصى المغرب، وتقاسمته ألوان من عصبية مذهبية وسياسية وطائفية، فافتضى هذا بطبيعة الحال أن تواردت على كتاب الإسلام الديني أممٌ وطوائفٌ شتى، تتذوّقه متأثرةً بظروفها الخاصّة ويفسّره المفسرون منهم ... تفسيراً يوجه النصّ توجيهها يعوزه في كثير من الأحيان، ذوق العربية النقي ومزاجها الأصيل؛ وقد ينحرف به عن وجهته ضلال التعصب أو خطأ المنهج أو قصور تناول. (76)

إذا تعددت الاتجاهات، واختلفت المدارس، وتنوعت التفاسير، وفي هذا المطلب سيكون الحديث في اتجاهات التفسير موضّحاً - بطريق الذكر المختصر والإشارة العابرة - على النحو التالي:

أولاً: الاتجاه العقدي

ثانياً: الاتجاه الفقهي

ثالثاً: الاتجاه العلمي التجريبي

رابعاً: الاتجاه البياني (77)

76- عائشة عبد الرحمن، التفسير البياني للقرآن الكريم، ط7، دار المعارف، ص16.

77- هذا الاتجاه هو موضوع رئيسي في هذا البحث؛ لذا فإنني سأفرد له فصلاً مستقلاً إن شاء الله ينال فيه دراسة تفصيلية شاملة لمفهومه ونشأته والأطوار التي مرَّ بها.

أولاً: الاتجاه العقدي

أمضى النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة سنة في مكة المكرمة يدعو الناس إلى أبرز جانب في التصور الإسلامي، وأهم ركن من أركانه، وأجلى حقيقة من حقائقه، وهي حقيقة التوحيد بكل خصائصها وأجزائها من ألوهية وربوبية وغيرها، وظل يدعو الناس إليها، ويغرس بذورها في عقولهم وقلوبهم ونفوسهم؛ متدرّجاً معهم بالحكمة والموعظة الحسنة والقول اللين والتعامل الصادق والأمانة المطلقة، مطهراً قلوبهم شيئاً فشيئاً من الخرافات والأوهام التي علاها الصداً فاستقرت مكيّة فيها، وما أفرزت من زيغ وضلال على صعيد الاعتقاد والفكر والسلوك، مثبّتاً دعائمها بالحجج الساطعة والأدلة القاطعة والبراهين البينة، وكان عليه الصلاة والسلام لا يألو جهداً في مهمته، وقد كان عدم إيمانهم أكبر همه، وأكثر ما يشق عليه، قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَدِيعٌ قَفْصِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ الشعراء: ٣ وقد ألقى القوم الشبهات، وأكثروا الجدل وأطالوا المراءى وعاندوا واستكبروا، والقرآن يتدرج بهم دليلاً بعد دليل، وحجة بعد حجة إلى أن ثبت الله دينه في القلوب، ومكّن له في الأرض.

فهم الصحابة رضوان الله عليهم القرآن فهماً سهلاً يسيراً غير متكلف ولا متعسف، وفهموا الإسلام كذلك فهمهم للقرآن، واعتقدوه اعتقاداً غصّاً طريراً دون تمحل أو غلو، إلى أن اتسعت رقعة الدولة الإسلامية بانضمام شعوب بأكملها إلى هذا الدين ورثت معتقداتٍ وفهوماً لم تقوّم بعد من اعوجاجها، ولم تطهر من شوائبها، فاستقبلوا القرآن بفهم غير خالص بعيداً عن نقاء الفطرة وصفائها الذي كان للجيل الأول من الموطّئين لهذا الدين، فألقت هذه العوامل بظلالها على فهمهم للقرآن بل وتعاملهم معه، ومن ثم عرضه فيما بعد على من تلقوه عنهم، ولعل أكبر الأثر في تذكية هذه الموروثات؛ كان في احتلال الفلسفة مكاناً كبيراً في أكثر العلوم الشرعية بل وفي عقول المتصدين لها، مما حدا بكثير من العلماء أن يتبنى هذه

الطريقة الجدلية في الرد على المخالف، وفي عرض هذه العلوم على التلامذة والمريدين، ولا شك في أن من يطالع تأليف تلك الحقبة يرى تقارع الحجج والبراهين باستخدام أساليب المنطق والجدل ماثلة له في كل زاوية، وفي أي موضع يقلب صفحاته.

ومن ذلك أيضا ما كان من أصحاب الملل والمذاهب التي تفرقت الأمة عليها؛ فكان كلُّ صاحب نخلة أو مذهب يدافع عن فكره ورأيه مستخدما ذات الأساليب في عرض كتاب الله وتفسيره، وكثيرا ما كان يتعسف ويتمحّل من أجل نصرة مذهبه ولو كان فاسدا، وظلت هذه هي طريقة التدوين والتأليف إلى أن أظّل الله الدنيا بمرحلة جديدة شعت أنوارها فبددت ظلمة التقليد والجمود، وكان على رأسها الإمام محمد عبده فقام بثورة على المناهج القديمة والأساليب ذات الطابع التقليدي التي عفا عليها كثر الأيام، وقد كان له أكبر الأثر في التجديد المبني على أسس متينة من التركيز على القضايا العقدية العامة التي عاجلها الإسلام، ثم أعاد أسلوب الطرح في التفسير إلى بساطة الفهم ويسره الذي ميّز جيل الصحابة رضي الله عنهم على غيرهم من الأجيال قبل الولوج إلى مداخل التيه، وقبل اختلاط هذه الفهوم بالآراء الفلسفية الغريبة عن بيئة القرآن وأهله.

ويمكن تلخيص السمات الأساسية لهذه المدرسة بالنقاط التالية: (78)

1. التركيز على الإسلام دين العقل.
2. عدم التعقيد وسهولة العرض ويسره.
3. الرد على الشبهات والافتراءات.
4. تضيق نطاق الخلافات الداخلية.

78- فضل عباس، التفسير أساسياته واتجاهاته، 537-544 بتصرف واختصار، من أراد التوسع فليرجع إليه ففيه كلام قيم.

5. إبراز خصائص العقيدة.

ومن أهم كتب التفسير التي عرضت لقضايا العقيدة تفسير مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي وهو تفسير كبير ذو قيمة علمية عالية يمتاز عن غيره بالأبحاث الفياضة الواسعة في نواح شتى من العلم؛ كالعلوم الرياضية والفلسفية والمباحث الفقهية والأصولية والنحوية والبلاغية، فهو بحق موسوعة في العلوم الشرعية والكلامية والطبيعية، ولا غرو فمؤلفه إمام موسوعي حظي بشهرة واسعة في مختلف الأقطار والأمصار الإسلامية فقد كان محطَّ الأنظار ومقصد الزوار من أنحاء العالم آنذاك.⁽⁷⁹⁾

وكذلك تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للإمام نظام الدين ابن الحسن النيسابوري، وإن كان بعضهم يعده من التفسير الإشاري لكثرة ما أورد فيه مؤلفه من مواجيد الروحية وفيوضاته الربانية، إلا أن الكتاب في أصله تلخيص واختصار للتفسير الكبير للرازي، وقد تعرض لكثير من القضايا العقدية موازنا بين الرازي والزمخشري ثم مبديا رأيه كما يظهر له منتصرا لمذهب أهل السنة والجماعة.⁽⁸⁰⁾

ثانيا: الاتجاه الفقهي

بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أصبح نفر من صحابته رضوان الله عليهم مرجعا يعود إليه الناس للاستفتاء في شؤون الدنيا والدين، ومسائل الحياة العامة والخاصة، وقد ساعد انتشار هؤلاء نفر الكرام في الأمصار والأقطار المختلفة على نشر القرآن وعلومه، فتلقته طوائف من التابعين الذين قاموا بدورهم بتعليم الناس وتفقيهم أمور دينهم وهكذا

79- الذهبي، التفسير والمفسرون، ج1، ص290-296.

80- الذهبي، التفسير والمفسرون، ج1، ص321-332، بتصرف واختصار. للنظر في مسألة تشيع النيسابوري ينظر نفس المرجع، ج1، ص328-332.

انتقل العلم حتى تلقَّفه رجال نبغوا في الفقه والعلوم الشرعية واستنباط الأحكام وتقنينها بقواعد منضبطة لا تتخلف ولا تشذ، فعرفهم الناس، وأقبل عليهم طلبة العلم، والتفَّ حولهم الأتباع، حتى صاروا أرباب مدارس، وأصحاب اتجاهات، وأئمة مذاهب، يُقصِدون من أرجاء مختلفة من الدولة الإسلامية آنذاك. فأخذت عنهم الفتوى، ودوّنت آراؤهم وأقوالهم، وتناقلها الناس جيلا بعد جيل.

وقد كان المعتمد في ذلك كله - بالطبع - كتاب الله تعالى فهو مصدر الفتيا وهو مرجع الفقهاء وهو القطب الذي تدور حوله رحي الاستنباط. وقد خلب هذا الكتاب الكريم العقول بنظمه وتشريعاته كما بهر الإحساس من قبل بيانه وبلاغته. فتركزت دراسات حول المسائل الفقهية والأحكام الشرعية في القرآن، كما ظهرت دراسات خاصة ركّزت على الآيات ذات السمة الفقهية، والتي تحمل أصولا يُرتكز عليها بالفتيا والاستنباط عرفت بكتب آيات الأحكام، كما للجصاص وابن العربي وظهر كذلك ما يمكن أن يطلق عليه موسوعات فقهية كما للإمام القرطبي.

وظلت هذه الطريقة متبّعة حتى كانت ثورة الأستاذ الإمام ومدرسته، فكان لها عظيم الأثر بتنحية التعصب المذهبي، وإظهار حكمة التشريع وإعجازه الباهر الذي عُدَّ نوعا من أنواع التحدي لكل قانون تليد أو طارف، وكذلك رد الشبهات التي قامت حول بعض التشريعات الإسلامية التي أثارت حفيظة خصوم هذا الدين.

من أبرز الكتب في هذا الاتجاه:

الجامع لأحكام القرآن الكريم للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي وهو أكبر موسوعة تفسيرية فقهية؛ فهو يعرض لذكر أسباب النزول والقراءات والإعراب، ويبين

الغريب من الألفاظ، ويحتكم كثيرا إلى اللغة، ويكثر من الاستشهاد بأشعار العرب، ويردُّ على المعتزلة والقدرية والروافض والفلاسفة، وينقل عن السلف كثيرا مما أثر عنهم في التفسير والأحكام، كما ينقل عن تقدمه من المفسرين خصوصا ممن أُلِّفَ منهم في كتب الأحكام مع تعقيبه على ما ينقل منها، كما يفيض في ذكر مسائل الخلاف وما تعلق منها بالآيات عن قرب وما تعلق بها عن بعد مع بيان أدلة كل قول.⁽⁸¹⁾

وأیضا أحكام القرآن لأبي بكر أحمد بن علي الرازي المعروف بالخصاص وهو على المذهب الحنفي.⁽⁸²⁾ وكتاب أحكام القرآن لعماد الدين أبو الحسن علي بن محمد الطبري المعروف بالكنيا الهراسي وهو على فقه الإمام الشافعي⁽⁸³⁾. وكذلك أحكام القرآن لأبي بكر محمد بن عبد الله المعافري المعروف بابن العربي وهو على مذهب مالك.⁽⁸⁴⁾

ثالثا: الاتجاه العلمي التجريبي

لعل المطلع على كتاب الله دارسا وباحثا؛ يعجب حدَّ الدهشة لكثرة ما احتوى على الآيات المرغبة بالعلم والتعلم، والحائثة على النظر والتفكر، كثرةً حدت بكثير من أبناء هذه الأمة سلفا وخلفا على طلب العلم، والإقبال عليه، حتى صار لهذه الأمة عبر أجيال عديدة تراثٌ عظيم في جوانب شتى من العلوم الدينية والدينية تفخر به وتزدهي بين الأمم والشعوب، ولعل التفاتةً سريعةً إلى التاريخ كفيلاً بتصديق هذه الدعوى والتسليم بها.

81- الذهبي، التفسير والمفسرون، ج2، ص457-459، بتصرف واختصار.

82- الذهبي، التفسير والمفسرون، ج2، ص338.

83- الذهبي، التفسير والمفسرون، ج2، ص444.

84- الذهبي، التفسير والمفسرون، ج2، ص448.

ولقد تنوّعت الجوانب العلمية التي أخذ بها المسلمون دراسة وبحثاً، حتى أصبحوا لها رؤّاداً تالّلات أسماؤهم في سماء الدنيا، يقصدهم طلاب العلم والراغبون فيه من أرجاء متفرقة من العالم آنذاك للاستفادة من علومهم وبحوثهم، ولم تقتصر هذه الدراسات والأبحاث على الجانب الشرعي فحسب بل تعدته إلى علوم الدنيا من طب وفلك وجبر وهندسة وكيمياء وما إلى ذلك من علوم طبيعية وتجريبية.

ولم يكن القرآن بمعزل - بالطبع - عن هذه الثورة العلمية الحادثة بين أجيال علماء المسلمين .. فكثيراً ما قام العلماء - وقد كانوا آنذاك موسوعيين على درجة واسعة من المعرفة بالعلوم على اختلافها وتنوعها - بدراسة الآيات التي تحدثت عن ظواهر علمية تجريبية واتسمت بطابع كوني، ظهر على إثر ذلك خلاف بين العلماء، بين مجوّز ومانع لتفسير هذه الآيات تفسيراً علمياً ومقارنتها بظواهر كونية، حيث إن هذه الآيات ملأت ما بين دفتيّ القرآن من أحوال السماوات والأرض وتعاقب الليل والنهار وأحوال الشمس والقمر والنجوم.

وليس هذا الخلاف الناشئ في هذه المسألة حديث العهد ووليد هذا العصر، فقد كانت مثار الجدل منذ تفرّغ علماء هذه الأمة للبحث في كل مسألة تعرض لهم في كتاب الله وفي غيره من العلوم.

فها هو شيخ الإسلام الغزالي رحمه الله يدافع عن الرأي المجوّز بحزم وقوة، ويرى أن في القرآن الكريم إشارات ودلالات على هذه العلوم لا يدركها إلى المتعمق بفهمه لهذه الظواهر التي أشار لها هذا الكتاب، ودلّل عليها وأن مجرد النظر إلى ظاهر القرآن لا يمكن من تفسيره وفهمه على الوجه الذي أراده الله ورضيه.

وكذلك كان الرازي رحمه الله لا يكتفي بالدفاع عن هذه الإباحة بل كان يرد على المانعين والمعترضين ، كيف لا وهو صاحب التفسير الكبير الذي أورد فيه كثيرا من هذه الإشارات والدلالات ذكرا وشرحا، وتعرض لها ببحث ودراسة واسعة فأخرجت كتابه عن كونه تفسيرا إلى أن عُدَّ موسوعة قرآنية شاملة مستفيضة، تبحث في كل ما في القرآن، إشارة عابرة كانت أو ذكرا تفصيليا، ويقول أيضا: لو لم يكن البحث عن هذه الإشارات والتأمل في أحوالها جائزا لما ملأ الله كتابه منها.

وعلى الاتجاه الآخر من ذلك كان الإمام الشاطبي صاحب الموافقات رحمه الله فقد كان يتزعم دور المانعين؛ حيث تبنى الرأي المحرم بشدة مستدلا بأمية الشريعة، وأنها جارية على مذهب أهلها، وبأمور أخرى لا يتسع المقام لذكرها.

ثم انتقل هذا الخلاف، حيث حلّ في أهل مدرسة العصر الحديث، فقد كان لكل من الفريقين أتباع، فأمين الخولي ومحمد حسين الذهبي ومحمود شلتوت ومحمود محمد شاكر رحمهم الله جميعا على رأي الإمام الشاطبي ومصطفى صادق الرافعي والأستاذ المراغي ومحمد أحمد الغمراوي رحمهم الله يتبنون رأي المجيزين، وقد وضع الأستاذ الغمراوي قيودا تحول دون الشطط في التأويل، والجموح في التطبيق.⁽⁸⁵⁾

ومن أهم التفاسير التي عرضت للمسائل العلمية تفسير الشيخ طنطاوي جوهرى رحمه الله واسمه الجواهر في تفسير القرآن الكريم.

85- فضل عباس، التفسير أساسياته واتجاهاته، ص571-594 بتصرف واختصار. لمزيد من التفصيل حول هذه المسألة ينظر كتاب مناهج

تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، أمين الخولي، ط1، 1961م، دار المعرفة، ص287-296.

الفصل الثاني

التفسير البياني : بين المفهوم والتاريخ

المبحث الأول : مفهوم التفسير البياني

المبحث الثاني : التفسير البياني : النشأة والتاريخ

المبحث الأول : مفهوم التفسير البياني

تفاضل النتاج في كل صناعة، وتمايز الأيدي الماهرة عن غيرها من المبتدئة والقاصرة؛
سنة كونية ودأب في كل حرفة أو مهنة.

ففي صناعة النجارة أو صناعة البنيان مثلاً، لا تجد أحداً ممن امتهن هاتين الصناعتين —
مهما بلغ به احترافه — يخلق مادة لم تكن موجودة، أو أنه يخرج فيهما عن قواعدهما العامة أو
المعهودة.

إنما التفاضل والتمايز يكون في اختيار أفضل المواد وأبقاها على الدهر وأمضاها في
قضاء الحاجة المرادة منها، وفي ابتداع طرز جديدة وأساليب حديثة غير معروفة ولا مطروقة
تدخل السرور والإقبال على الراغبين في الامتلاك والاقتناء.

وكما يكون التفاضل والتمايز في هاتين الصناعتين وغيرهما يكونان كذلك في صناعة
البيان والإنشاء؛ فليس كل كلام عربي ككل كلام عربي، وليس كل كاتب أو منشئ بيان
ككل كاتب أو منشئ بيان، على رغم أن الحروف التي تركبت منها الكلمات هي ذاتها
والكلمات التي تألفت منها الجمل هي نفسها والمناهج المستخدمة في التأليف هي التي
درج عليها أي كاتب في هذا المضمار.

فالتفاضل والتمايز إذاً في صناعة البيان إنما يكون في حسن الاختيار من بين تلك المواد
والأوضاع ، ففي اللغة العربية الكثير من الأساليب والعديد من التراكيب والمختلف من

المسالك التي يتفاوت الكتّابون في استخدامها ويختلفون في وضعها حسب أغراضهم وغاياتهم، فما يقبح هنا قد يحسن هناك وما يبلغ في هذا الموضع قد يقصر في ذاك.

والقرآن الكريم — لا شك أنه — سائر على تلك الأوضاع التي عهدتها العرب في لغتهم واستخدمها أبيناؤهم — أي بلغاؤهم — في خطبهم وأشعارهم ، وقد كان ذلك في عصر بلغت فيه اللغة أزهى مراحل البيان العربي وأرقى أدوار التهذيب اللغوي ، فأدركت العربية أشدها وتمّ لأهلها تهذيب كلماتها وأساليبها ، فكانت أسواق العرب منابر مرفوعة في الصحراء ورايات خفاقة في الحواضر والبادي يقصدها الأدباء من كل حذب وصبوب يعرضون فيها أنفُس بضائعهم وأجود صناعاتهم وما أمر حسان والخنساء وغيرهما بخافٍ على متأدّب أو باحث ، ونص الخبر : أن حسان بن ثابت أنشد في سوق عكاظ فقال :

لنا الجفّنات الغر يلمعن بالضحى وأسيفنا من نجدة قطرت دما

ولدنا بني العنقاء وابني محرق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

فقالت الخنساء: ضَعَفْتَ افتخارك في ثمانية مواضع قال: وكيف؟ قالت: قلت: (الجفّنات) وهي ما دون العشر فقلّلت العدد، ولو قلت: (الجفان) لكان أكثر، وقلت: (الغر) والغرة البياض في الجبهة ولو قلت البيض لكان أكثر اتساعا، وقلت: (يلمعن) واللمع شيء يأتي بعد الشيء ولو قلت يشرقن لكان أكثر لأن الإشراق أدوم من اللمعان، وقلت: (بالضحى) ولو قلت (بالعشية) لكان أبلغ في المديح لأن الضيف بالليل أكثر طروقا، وقلت: (أسيفنا) والأسيف دون العشر ولو قلت (سيوفنا) لكان أكثر، وقلت: (يقطرن) فدلّلت على قلة القتل

ولو قلت يجرين لكان أكثر، وقلت (دما) والدماء أكثر من الدم وفخرت بمن ولدت ولم تفتخر بمن ولدك.⁽⁸⁶⁾

فما هو إلا أن جاء القرآن وإذا الأسواق قد انفضت إلا منه، وإذا الأندية قد صفرت إلا عنه، فما قدر أحد منهم أن يباريه أو يجاريه، أو يقترح فيه إبدال كلمة بكلمة أو حذف كلمة أو زيادة كلمة أو تقديم واحدة وتأخير أخرى، ذلك على أنه لم يسدّ عليهم باب المعارضة بل فتحه على مصراعيه، بل دعاهم إليه أفرادا وجماعات، بل تحداهم وكرر عليهم ذلك التحدي في صور شتى متهكّما بهم متزّلا معهم إلى الأُخفّ فالأخفّ، فدعاهم أول مرة أن يجيئوا بمثله ثم دعاهم أن يأتوا بعشر سور مثله ثم أن يأتوا بسورة واحدة مثله ثم بسورة واحدة من مثله .. ويلق الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله هنا بعد إيراد هذه المنازل فيقول في الهامش: انظر كيف تتزلّ معهم في هذه المرتبة من طلب المماثل إلى طلب شيء مما يماثل كأنه يقول: لا أكلفكم بالمماثلة العامة بل حسبكم أن تأتوا بشيء فيه جنس المماثلة ومطلقها وبما يكون مثلا على التقريب لا التحديد، وهذا أقصى ما يمكن من التزّل؛ ولذا كان هو آخر صيغ التحدي نزولا فلم يجيئ التحدي بلفظ (من مثل) إلا في سورة البقرة المدنية، وسائر المراتب بلفظ (مثله) في السور التي نزلت قبل ذلك بمكة، فتأمل هذا الفرق فإنه طريف. ثم يكمل الشيخ دراز كلامه الأول فيقول: وأباح لهم في كل مرة أن يستعينوا بمن شاءوا ومن استطاعوا ثم رماهم والعالم كلّهُ بالعجز في غير موارد فقال سبحانه: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ الإسراء: ٨٨ وقال أيضا: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي

وَقُوْدُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ البقرة: ٢٤. (87) فانظر أي إلهاب وأي

استفزاز؛ لقد أجهز عليهم بالحكم البات المؤبد في قوله: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ ثم هددهم بالنار ثم سواهم بالأحجار، فلعمري لو كان فيهم لسان يتحرك لما صمتوا عن منافسته وهم الأعداء الألداء، وأبابة الضيم الأعزاء، وقد أصاب منهم موضع عزتهم وفخارهم، ولكنهم لم يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى معارضته، ولا سلماً يصعدون به إلى مزاحمته، بل وجدوا أنفسهم منه أمام طود شامخ؛ فما استطاعوا أن يظهره وما استطاعوا له نقبا، حتى إذا استياسوا من قدرتهم واستيقنوا عجزهم ما كان جوابهم إلا أن ركبوا متن الختوف واستنطقوا السيوف بدل الحروف، وتلك هي الحيلة التي يلجأ إليها كل مغلوب في الحجة والبرهان، وكل من لا يستطيع دفعا عن نفسه بالقلم واللسان. (88)

لقد نزل القرآن على مسامع العرب كأنه الرعد يقصف في نفوسهم فيزلزلها، ويترك على قلوبهم فيوهنها، ويصعق أعصابهم فيصيبها بالشلل فلا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا.

لقد سمع العرب القرآن فكانت كل آية تطرق أسماعهم تصيبهم في أنفسهم بما تصيبهم، فلا يحسُّوا منها إلا تراجع الطبع وفطور العزيمة وانكسار النفس وإذعان الخاطر وانتشار الأمر واضطراب القوة.

87- للأديب الرافعي رحمه الله تعليق جميل على هذه الآية لعل الدكتور دراز كان قد اطلع عليه قبل أن يكتب تعليقه هو وشرحه على هذه الآية، يقول الرافعي: تأمل نظم الآية تجد عجا ففقد بالغ في احتياهم واستفزازهم ليثبت أن القدرة فيهم على المعارضة كقدرة الحي على أعمال الحياة؛ لن تكون ولن تقع، فقال لهم: لن تفعلوا أي هذا منكم فوق القوة وفوق الحيلة وفوق الاستعانة وفوق الزمن، ثم جعلهم وقودا ثم قرَّهم إلى الحجارة ثم سماهم كافرين، فلو أن فيهم قوة بعد ذلك لانفجرت، ولكن الرماد غير النار.

88- محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، دار القلم، الكويت 1984، ص 84-85. للرافعي أيضا كلام نفيس للغاية في هذا الباب في كتابه إعجاز القرآن، ص 131-132.

وقد ذكر في السيرة أن عددا من صناديد قريش وعتاتها كانوا يتسللون في خفاء الليل ليسمعوا القرآن ممن نزل عليه القرآن صلى الله عليه وسلم، والخبر أن أبا جهل وأبا سفيان والأخنس بن شريق كان كل واحد منهم يأخذ نفسه خلسة لسماع القرآن في الليل، والرسول عليه الصلاة والسلام في بيته لا يعلم مكانهم، ولا يعلم أحد منهم بمكان صاحبه، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، حتى إذا جمعتهم الطريق تلاوموا وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر وجمعتهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعتهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا⁽⁸⁹⁾. وقد أخبر الله نبيه بهذا الأمر فقال: ﴿لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَبِيعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ الإسراء: ٤٧.

وفي السيرة أيضا أن الملاء من قريش بعثوا أحد صناديدهم وهو عتبة بن ربيعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعرض عليه أمورا أرسلوه بها، فقرأ المصطفى عليه الصلاة والسلام آيات من سورة فصلت عاد بعدها إلى قريش مأخوذا، فما لمحوه حتى صاحوا: عاد أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به.⁽⁹⁰⁾

89- فاضل صالح السامرائي، التعبير القرآني، ط5، دار عمار، عمان، 2007، ص10.

90- عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، ط3، دار المعارف، القاهرة، ص47.

يورد الشهيد سيد قطب رحمه الله تحت عنوان (سحر القرآن) قصتين اثنتين في هذا الباب هما قصة إيمان عمر بن الخطاب وقصة تولي الوليد بن المغيرة فيقول: هاتان القصتان نموذجان من قصص كثيرة للإيمان والتولي وكتاهما تكشفان عن هذا السحر القرآني الذي أخذ العرب منذ اللحظة الأولى وتبينان _ في اتجاهين مختلفين _ عن مدى هذا السحر القاهر الذي يستوي في الإقرار به المؤمنون والكافرون.

فأما قصة إيمان عمر ففيها أنه قال: كنتُ للإسلام مباعداً وكنتُ صاحب خمر في الجاهلية أحبها وأشربها وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش فخرجت أريد جلسائي أولئك فلم أجد منهم أحداً، فقلت لو أنني جئت فلانا الخمار وخرجت فجئته فلم أجد، قلت: لو أنني جئت الكعبة فطفت بها سبعا أو سبعين، فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي، وكان إذا صلى استقبل الشام وجعل الكعبة بينه وبين الشام واتخذ مكانه بين الركنتين: الأسود واليماني فقلت حين رأيته: والله لو أنني استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول، وقام بنفسي أنني لو دنوت منه أسمع لأروِّعنه، فجئت من قبل الحجر فدخلت تحت ثيابه ما بيني وبينه إلا ثياب الكعبة فلما سمعت القرآن رَقَّ له قلبي فبكيت ودخلني الإسلام.

تلك قصة إيمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أما قصة تولي الوليد بن المغيرة ففيها روايات كثيرة ملخصها: أن الوليد بن المغيرة سمع شيئاً من القرآن الكريم فكأنما رَقَّ له، فقالت قريش: صباُ والله الوليد ولتصبون قريش كلهم، فأوفدوا له أبا جهل يثير كبريائه واعتزازه بنسبه وماله، يطلب إليه أن يقول في القرآن قولاً يعلم به قومه أنه له كاره، قال: فماذا أقول فيه؟ فوالله ما منكم رجل أعلم مني بالشعر ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما

يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا، والله إن لقوله لحلاوة وإن لعليه لطلاوة، وإنه ليحطم ما تحته وإنه ليعلو وما يُعلى. قال أبو جهل: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني أفكر فيه. فلما فُكّر قال: إن هذا إلا سحر يؤثر، أما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله ومواليه؟ وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّهُ فَكَرَّ وَقَدَّرَ ۚ ۝١٨ فَقُلِ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُلِ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ

۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۝٢٤﴾ المدثر: ١٨ - ٢٤

ثم يعلّق الشهيد سيد قطب على ذلك بقوله: ومن هنا تلتقي قصة الكفر بقصة الإيمان في الإقرار بسحر هذا القرآن، وتلتقي على الإقرار به شخصيتان بينهما من المدى ما بين عمر بن الخطاب والوليد بن المغيرة، فتشرح صدر عمر للإسلام وتصد الكبرياء الوليد عن الإذعان، ويذهبان في طريقيهما متدابرين بعد أن يلتقيا في نقطة واحدة: نقطة الإقرار بسحر القرآن. (91)

هو إذاً سحر البيان لا سحر الكهان، وهو سحر العربية على وجدان العربي، وسلطانها في ملكته، وغلبتها على إرادته، واستبدادها بطبعه. (92)

نقل الرافعي عن الجاحظ تلخيصاً لما أحدثه القرآن الكريم من دويٍّ في أوساط العرب عند سماعهم آياته فقال: بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم أكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً، وأحكم ما كانت لغةً وأشد ما كانت عُدَّةً، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله وتصديق رسالته، فدعاهم بالحجة؛ فلما قطع العذر وأزال الشبهة وصار الذي يمنعهم من الإقرار والهوى والحمية دون الجهل والحيرة؛ حملهم على حظهم بالسيف؛ فنصب لهم الحرب

91- سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ط7، دار الشروق، القاهرة، 2004، ص11-14، باختصار.

92- انظر: طه حسين، مرآة الإسلام، ط4، دار العلم للملايين، بيروت، ج2، 81-108.

ونصبوا، وقتل من عليّهم وأعلامهم وأعمامهم وبني أعمامهم، وهو في ذلك يحتجّ عليهم بالقرآن ويدعوهم صباحا ومساء إلى أن يعارضوه إن كان كاذبا بسورة واحدة أو آيات يسيرة، فكلما ازداد تحديا لهم بها، وتقريبا لعجزهم عنها، تكتشف من نقصهم ما كان مستورا، وظهر منه ما كان خفيا، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة قالوا له: أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف فلذلك يمكنك ما لا يمكننا، قال: فهاتوها مفتريات، فلم يرّم ذلك خطيب ولا طمع فيه شاعر، ولو طمع فيه لتكلّفه، ولو تكلّفه لظهر ذلك، ولو ظهر لوجد من يستجيده ويحامي عليه ويكابر فيه، ويزعم أنه قد عارض وقابل وناقض، فدلّ ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم، واستجابة لغتهم وسهولة ذلك عليهم وكثرة شعرائهم وكثرة من هجاه منهم وعارض شعراء أصحابه وخطباء أمته، لأن سورة واحدة وآيات يسيرة كانت أنقض لقوله وأفسد لأمره وأبلغ في تكذيبه وأسرع في تقريع أتباعه من بذل النفوس والخروج من الأوطان وإنفاق الأموال، وهذا من جليل التدبير الذي لا يخفى على من هو دون قريش والعرب في الرأي والعقل بطبقات، ولهم القصيد العجيب والرجز الفاخر والخطب الطوال البليغة والقصار الموجزة ولهم الأسجاع والمزدوج واللفظ المنثور، ثم تحدى به أقصاهم بعد أن ظهر عجز أدناهم، فمحال أن يجتمع هؤلاء كلّهم على الغلط في الظاهر والخطأ المكشوف البين مع التقريع بالنقص والتوقيف على العجز، وهم أشدّ الخلق أنفة وأكثرهم مفاخرة، والكلام سيّد عملهم وقد احتاجوا إليه، والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض فكيف بالظاهر الجليل المنفعة، وكما أنه محال أن يُطبّقوا ثلاثا وعشرين سنة على الغلط في الأمر الجليل المنفعة، فكذلك محال أن يتركوه وهم يعرفون ويجدون السبيل إليه وهم يذلون أكثر منه.⁽⁹³⁾

93- مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، المكتبة العصرية، بيروت، 2001، ص 143-144.

لقد ملك القرآن الكريم سر الفصاحة، وجاء العربَ منها بما لا قبل لهم برده، ولا حيلة لهم معه فاستبد بإرادتهم وغلب على طباعهم وحال بينهم وبين ما نزعوا إليه من خلافه، حتى انعقدت قلوبهم عليه وهم يجهدون في نقضها، واستقاموا لدعوته وهم يبالغون في رفضها، فكانوا يفرون منه في كل وجه ثم لا ينتهون إلا إليه؛ إذ يرونه أخذ عليهم بفصاحته وإحكام أساليبه جهات النفس العربية.⁽⁹⁴⁾

حتى إذا استيأسوا من قدرتهم على المعارضة، واستيقنت ذلك أنفسهم ضعفا وعجزا، وكانوا قد أعدُّوا التكذيب والعداء؛ رموا صاحب الرسالة بكلام من الكلام، فقالوا: ساحر وشاعر ومجنون ورجل يكتب أساطير الأولين، وإنما يعلمه بشر، وأمثال ذلك مما أخذت به الحجة عليهم وكان إقرارا منهم بالعجز.

لقد كان الجديد في لغة القرآن أنه في كل شأن يتناوله من شؤون القول يتخير له أشرف المواد، وأمسَّها رحما بالمعنى المراد، وأجمعها للشوارد وأقبلها للامتزاج، ويضع كل مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحق بها وهي أحق به، بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلا مرآته الناصعة وصورته الكاملة، ولا يجد اللفظ في معناه إلا وطنه الأمين وقراره المكين، لا يوما أو بعض يوم؛ بل على أن تذهب العصور وتجيء العصور فلا المكان يريد بساكنه بدلا، ولا الساكن يبغي عن منزله حولا، وعلى الجملة يجيئك من هذا الأسلوب بما هو المثل الأعلى في صناعة البيان.

أسلوب عجب ومنهج من الحديث فذُّ مبتكر؛ كأنَّ ما سواه من أوضاع الكلام منقول، وكأنه على حد قول بعض الأدباء (وضع مرتجل) لا ترى سابقا جاء بمثاله، ولا لاحقا

94- الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص134.

طبع على غرارهِ، فلو أن آية منه جاءتكَ في جمهرة من أقوال البلغاء لدلَّت على مكانها، واستمازت من بينها كما يستميز اللحن الحساس بين ضروب الألحان، أو الفاكهة الجديدة بين ألوان الطعام.

فهو أسلوب يحمل طابعا لا يلتبس معه بغيره، ولا يجعل طامعا يطمع أن يحوم حول حماه، بل يدع الأعناق تشربُّ إليه ثم يردّها ناكسة الأذقان على الصدور.⁽⁹⁵⁾

95- دراز، النبأ العظيم، ص 92-100، باختصار وتهذيب، جمال البناء، تفسير القرآن الكريم بين القدامى والمحدثين، ط1، 2008، دار الشروق، القاهرة، 24-26.

المبحث الثاني

التفسير البياني : النشأة والتاريخ

وفيه ثلاثة مطالب

المطلب الأول : مدخل إلى تاريخ التفسير البياني

في القرآن سرٌّ عجيب كان له أكبر الأثر وأعظمه في مجريات الزمان من بعده، ولقد جرى ذكر طرف من هذا الأثر العظيم على الأمة التي نزل عليها هذا الكتاب الكريم في مختلف ميادين الحياة في ما مضى من مبحث سابق.

لقد كان أثر هذا القرآن في كل باب من أبواب الحياة؛ فإليه يرجع ما ظهر في العرب من خضوع للقيادة العليا، وإغضاء عن دواعي ما في نفوسهم من حسد وأنفة؛ حتى استطاعوا أن يدحروا الجيوش ويثُلُّوا العروش ويدخلوا البلدان فاتحين، وهو الذي أنام فيهم طبيعة المنافسة وقتل حب الرياسة؛ فعملوا وكانت غايتهم من كل أعمالهم منفعة الأمة لا منفعة الفرد، وأن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، حتى إذا لاح لهم شبح الدنيا وتعاموا عن النظر إلى هذا السر القرآني العظيم انصرفوا من القتال لله إلى القتال للشهوات ومن ثم انصرفوا من قتال الأعداء إلى قتل الأولياء. وهو كذلك — أي هذا السر العظيم — الذي ألان

من قناتهم وجعلهم ينصرفون عن كل شيء إلا عن الوقوف عند أحكام القرآن والأخذ بمبادئه وتعاليمه، ودرسه والبحث فيه لفظاً ومعنى وقلبا وقالبا. (96)

ومن هذه الدراسة الوقوف على أسلوبه وفحص سره البياني وسحره البلاغي منذ اليوم الأول لطرقه أسماعهم، فقد روي أن مصعب بن عمير مكث في أهل يثرب يتلو عليهم آيات من القرآن؛ فما سمعوها حتى آمنوا بها ودعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم للهجرة إليهم. وقد قال الناس: فتحت الأمصار بالسيوف وفتحت المدينة بالقرآن.

ولعل هذا مما يؤكد خطأ من اتجه من المؤرخين إلى خلو صدر الإسلام من التفسير البياني إلى أن ظهرت المصطلحات البلاغية في بداية العصر العباسي، وقد فات هؤلاء أن العرب قرأت القرآن بفطرتها السليمة وسليقتها الأصيلة دونما حاجة إلى هذه المصطلحات الغريبة وتلك التعريفات التي نشأت متأخراً عن طلائع هذا النوع من التفسير. قال الجاحظ: فإن زعم زاعم أنه لم يكن في كلامهم تفاضل ولا بينهم في ذلك تفاوت فلم ذكروا العي والبكى والحصر والمفحم والخلط والمسهب والمتشدد والمتفهيق والهماز والثرثار والمكثار والمهماز؟ ولم ذكروا الهجر والهذر والهذيان والتخليط؟ وقالوا رجل تلفاعة وتلهاعة وفلان يتلهيع في خطبته، وقالوا فلان يخطئ في جوابه ويحيل في كلامه ويناقض في خبره، ولولا أن هذه الأمور قد كانت تكون في بعضهم دون بعض لما سمي ذلك البعض والبعض الآخر بهذه الأسماء. (97)

ولو أردنا أن نتلمس الأصول الأولى للتفسير البياني فلنرجع إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونظرات صحابته الكرام في آيات الكتاب الكريم فإننا سنجد جملة

96- انظر تفسير القرآن بين القدامى والحديثين، 29-34، وكذلك 39-43.

97- فهد الرومي، اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، ط4، 2002، مكتبة الرشد، الرياض، ج2، ص870.

ضافية من الأمثلة لتلك الأصول البديعة في هذا النوع من التفسير والتي تعد الطلائع الأولى التي كانت مددا للعلماء فيما بعد في مسيرتهم الحافلة المعطاء.

من ذلك المدد بيأئه عليه الصلاة والسلام للخيط الأبيض من الخيط الأسود في قوله

تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۚ﴾ البقرة: ١٨٧، بياض النهار وسواد الليل⁽⁹⁸⁾ منتقلا بالمعنى من الحقيقة إلى المجاز.

وكذلك نجد عليه الصلاة والسلام يفسر الرزق بالشكر في قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ

رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾ الواقعة: ٨٢. ⁽⁹⁹⁾

وسار صحابته من بعده كذلك على نهجه، تحكّمهم سليقتهم العربية وفطرتهم النقية،

فهذا ابن عباس رضي الله عنهما يقول في قوله تعالى: ﴿أَيُّدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ

مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ

ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ

لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ البقرة: ٢٦٦، إنها ضربت مثلاً لرجل يعمل أعمال أهل الخير

والسعادة حتى إذا كان في آخر عمره أحوج ما يكون إلى ثمرة عمله، ختم فعله بعمل أهل

الشفاء فما أصاب خيراً. ⁽¹⁰⁰⁾ ويقول في قوله تعالى: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ الْأَرْضَ بَعْدَ

98- أخرجه البخاري في صحيحه، ط1، 2003، دار ابن حزم بيروت، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب تفسير القرآن، باب: قوله تعالى: "وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود" رقم: 4510.

99- فهد الرومي، اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، ج2، ص871، أخرجه أحمد في مسنده، ج2، 330، رقم: 1087، والترمذي في أبواب التفسير، باب: ومن سورة الواقعة، رقم: 3259، وقال: حسن غريب.

100- أخرجه البخاري في تفسير القرآن، باب: قوله تعالى: "أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب"، رقم: 4538.

مَوْتَهَا ﴿١٧﴾ الحديد: ١٧، إن المراد إحياء القلوب⁽¹⁰¹⁾ لأن إحياء الأرض بدهي لا يحتاج إلى هذا التأكيد.

وكذلك قال عن قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ النصر: ١ - ٣، إن ذلك كناية عن أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم⁽¹⁰²⁾ حيث أتم رسالته وبلغ أمانته.

وأيضاً شرحه رضي الله عنه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴿٣٠﴾﴾ الأنبياء: ٣٠، حيث قال: كانت السموات رتقا لا تطر والأرض رتقا لا تنبت، ففتق هذه بالمطر وهذه بالنبات.⁽¹⁰³⁾

وهذا سيدنا عمر رضي الله عنه يبين سر الإعجاز في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴿١١٠﴾﴾ آل عمران: ١١٠، يقول: لو شاء الله تعالى لقال: أنتم فكننا كلنا، ولكن قال: كنتم في خاصة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن صنع مثل صنيعهم.⁽¹⁰⁴⁾

101- ينظر جامع الأصول لابن الأثير، رقم: 833.

102- أخرجه البخاري في المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، رقم: 3627.

103- أخرجه الحاكم في المستدرک، ط1، 1990، دار الكتب العلمية، بيروت، ج2، 414، رقم: 3443، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

104- أخرجه الطبري في تفسيره، ط1، 2000، مؤسسة الرسالة، تحقيق محمود محمد شاكر واحمد محمد شاكر، ج7، 101، رقم: 7608.

وهذا عروة بن الزبير رضي الله عنه يسأل السيدة عائشة رضي الله عنها عن السعي بين الصفا والمروة، وعما أشكل عليه في ذلك فتقول له: لو كان كما قلت لقال الله تعالى: (فلا جناح عليه ألا يطوف بينهما).⁽¹⁰⁵⁾

يعقب الشيخ فضل عباس بعد إيراد بعض من هذه الأمثلة بقوله: إن بعض هذه الآثار أشار إلى ناحية النظم وبعضها أشار إلى الصور البيانية وما تُحدث في النفوس من أثر، وهذان البابان أرقى ما تُوصّل إليه من دراسة الإعجاز.⁽¹⁰⁶⁾

وهناك أقوال كثيرة أيضا نقلت كذلك عن الحسن البصري وأبي عمرو بن العلاء تنتمي إلى هذا الضرب من التفسير، ومن هذه الآثار ما يعرف في علوم القرآن بمسائل ابن الأزرق، وهي لقاءات جمعت بين عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ونافع بن الأزرق.

ذكر السيوطي في الإتيان: بينا عبد الله بن عباس جالس بفناء الكعبة قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن فقال نافع بن الأزرق لنجدة بن عويمر: قم بنا إلى هذا الذي يجترئ على تفسير القرآن بما لا علم به، فقاما إليه فقالا: إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا وتأتينا بمصادقة من كلام العرب فإن الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين، فقال ابن عباس: سلاني عما بدا لكما. فسأله نافع أكثر من مائة وثمان وثمانين مسألة.⁽¹⁰⁷⁾

105- فهد الرومي، اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، ج2، ص871. فضل عباس، التفسير أساسياته واتجاهاته، 405. محمد رجب البيومي، التفسير القرآني، المؤسسة الحديثة، 73-74، والحديث أخرجه البخاري في تفسير القرآن، باب: قوله تعالى: " إن الصفا والمروة من شعائر الله.. " رقم: 4495، ومسلم في صحيحه، ط1، 1999، دار الأرقم ابن أبي الأرقم، بيروت، الحج، باب: بيان أن السعي بين الصفا والمروة ركن لا يصح الحج إلا به، رقم: 1277.

106- فضل عباس، التفسير أساسياته واتجاهاته، ص405.

107- فهد الرومي، اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، ج2، ص871-872.

ولعائشة عبد الرحمن بنت الشاطي كتاب في الإعجاز البياني للقرآن خصصت القسم الثاني منه للحديث عن مسائل ابن الأزرق؛ فذكرت في مقدمة الدراسة الكتب والمراجع التي ذكرت هذه المسائل، وذكرت أن أجوبة ابن عباس رضي الله عنهما عن المسائل مبثوثة في كتب التفسير والكتب المفردة في غريب القرآن ومعاني القرآن والفصول والأبواب الخاصة بالغريب من الكتب الجامعة لعلوم القرآن. (108)

ويتساءل الشيخ فضل عباس مشككا في صحة الأسانيد: هل يمكن الجزم بصحة سند هذه المسائل؟ يقول هذا وهو يناقش بنت الشاطي في عدد من القضايا منها مسائل ابن الأزرق.

يقول الشيخ عباس:

أولاً: هل يمكن أن نجزم بصحة سند هذه المسائل؟

ثانياً: هل يمكن أن يوجه نافع مسأله هذه التي تقرب من المائتين لابن عباس في مجلس واحد، مستشهدا على كل مسألة بأبيات من الشعر وأن يحفظ الجالسون أو بعضهم ذلك كله في هذا المجلس؟

ثالثاً: كان بعض هذه الأسئلة عن كلمات ما أظن أن أحدا في زماننا يجهلها فكيف يمكن أن يُسأل عنها في ذلك العصر؟ أي أن هذه الأسئلة لم تكن كلها عما هو غريب.

رابعاً: كان بعض الشعر الذي استشهد به ابن عباس رضي الله عنهما لأولئك الذين قرؤوا القرآن وعرفوا مضمون كلماته بعد نزولها كعبد الله بن رواحة رضي الله عنه حيث استشهد

108- عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق دراسة قرآنية ولغوية وبيانية، ط3، دار المعارف، القاهرة، ص289-296، بتصرف واختصار.

ابن عباس بشعره حينما سأله نافع عن كلمتي فاز ويترفون وبشعر عمر بن أبي ربيعة حيث
استشهد ابن عباس بشعره حينما سئل عن كلمة "تضحى" في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ
فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ طه: ١١٩، أفيكون شأن نافع الجدِل الخصم اللسن أن يرضى بمثل
ذلك الشعر وهو يسأل عما قالته العرب قديما؟ نعم أفيكون شأن ابن عباس الفطن اليقظ أن
يستشهد له بمثل شعر ابن أبي ربيعة؟⁽¹⁰⁹⁾

ولو أردنا استقصاء هذه الأمثلة والبحث عنها لأطلنا بذلك ولخرجنا عن المقصود
والذي هو الإشارة إلى طلائع التفسير البياني وأن الصحابة والتابعين أدركوا هذا السر وبحثوا
فيه بفطرتهم وإيمانهم وحبهم لهذا القرآن العظيم، ومن أراد التوسع فليرجع إلى مظانها في كتب
التفسير وعلوم القرآن.

109 - فضل عباس، التفسير أساسياته واتجاهاته، ص 347-348، بتصرف واختصار.

المطلب الثاني: جهود المتقدمين في هذا المصنوع

كل ما سبق ذكره من آثار في هذا النوع من التفسير البياني كان قبل عصر التدوين مما تناقله الرواة وسجله المؤلفون، أما الجهود اللاحقة بعد التدوين فنجملها في ما يأتي:

1- أبو عبيدة: أول من عالج مسألة التفسير البياني في عصر التدوين أبو عبيدة معمر بن المثنى البصري المولود سنة 110هـ في البصرة، قال عنه الجاحظ: لم يكن في الأرض جماعي ولا خارجي أعلم بجميع العلوم من أبي عبيدة، له الكثير من التصانيف منها: مجاز القرآن، إعراب القرآن، في غريب الحديث، نقائض جرير والفرزدق، وغيرها، توفي سنة 210هـ وقد بلغ المائة.⁽¹¹⁰⁾

وما يتعلق من كتبه بموضوعنا هو كتابه الموسوم بمجاز القرآن ولعل السامع يظن لأول وهلة أن هذا الكتاب يعالج المجاز الذي اصطلح عليه علماء البيان فيما بعد، ولكن من يقرأ الكتاب يدرك أن مؤلفه لم يقصد هذا بل قصد الطريق الذي ينبغي أن يسلك لتبيين منه معنى الآية من قولهم: حزت الشيء أو حزت الطريق فهو انتقال من اللفظ إلى المعنى.

وسأورد بعضاً من الأمثلة الواردة بكتابه والتي تمثل جهداً متميزاً وسباقاً في هذا الضرب من التفسير، مكتفياً بالذكر دون التعليق خشية الإطالة:

- من مجاز ما جاء لفظه لفظ الواحد الذي له جماع منه، ووقع معنى هذا الواحد على الجميع، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ۝٥﴾ الحج: ٥، في موضع أطفالاً، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۝١٠﴾ الحجرات: ١٠، فهذا وقع معناه على قوله: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

110- محمد علي شاهين، المصادر الإسلامية، كتاب مخطوط أطلعني عليه المؤلف.

أَفْتَلُوا ﴿٩﴾ الحجرات: ٩، وقال: ﴿وَأَمْلَأْكَ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾ ﴿١٧﴾ الحاقة: ١٧ في موضع الملائكة.

- ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد ثم تُركت وحولت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿٢٢﴾ يونس: ٢٢، أي: بكم. (111)

2- الإمام الفراء: أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء أمام الكوفيين وأمير المؤمنين في النحو ولد سنة 144هـ وتوفي 207هـ وله من العمر 63 سنة. قيل عنه: لولا الفراء لسقطت العربية وما كانت. من كتبه: معاني القرآن والمقصود والممدود والوقف والابتداء والمذكر والمؤنث. (112)

أما كتابه معاني القرآن فلا نعدم فيه الملاحظات البلاغية في التقديم والتأخير وغيرهما من مباحث علم المعاني كما أشار إلى بعض مباحث علم البيان كالتشبيه والكناية وإن كان يغلب عليه طابع الإعراب والنحو.

ومن المآخذ على كتابه عنايته بمراعاة الفاصلة مقدما لها على كل اعتبار؛ فهو يرى

مثلا في قوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ ﴿٤٦﴾ الرحمن: ٤٦، أن التشبيه إنما جاءت لمراعاة الفاصلة وإلا فهي جنة واحدة.

111- فضل عباس، التفسير أساسياته واتجاهاته، ص406-411 بتصرف واختصار، وانظر: اتجاهات التفسير، فهد الرومي، ج2، ص873.

112- المصادر الإسلامية، مرجع سابق.

ومن الأمثلة في كتابه مما يتعلق بموضوعنا نورد بعضا منها لبيان أسلوبه في فهمه
لآيات القرآن الكريم، يقول:

- قوله تعالى: ﴿فَمَا رَمَحْتَ بِجَحْرِهُمْ﴾ (١٦) البقرة: ١٦، ربما قال القائل: كيف
تربح التجارة وإنما يربح الرجل التاجر؟ وذلك من كلام العرب: ربح بيعك
وخسر بيعك، فحسُنَ القول بذلك لأن الربح والخسران إنما يكونان في
التجارة فعلم معناه. ومثله من كلام العرب: هذا ليل نائم، ومثله من كتاب
الله: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ (٢١) محمد: ٢١، وإنما العزيمة للرجال، ولا يجوز
الضمير المحذوف إلا في مثل هذا، فلو قال قائل: قد خسر عبدك لم يجوز ذلك
إن كنت تريد أن تجعل العبد تجارة يربح فيه أو يُوضَعَ لأنه قد يكون العبد
تاجرا فيربح أو يُوضَعَ فلا يعلم معناه إذا ربح هو مِنْ معناه إذا كان متجورا
فيه، فلو قال قائل: قد ربحت دراهمك ودنانيرك، وخسر بُزُّك ورقيقك، كان
جائزا لدلالة بعضه على بعض.

- وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنَّنَا هُمْ هَؤُلَاءِ﴾ (٦٧) البقرة: ٦٧، وهذا في القرآن كثير
بغير الفاء وذلك لأنه جواب يستغني أوله عن آخره بالوقفة عليه فيقال: ماذا
قال لك، فيقول القائل: قال كذا وكذا، فكان حسن السكوت يجوز به طرح
الفاء، وأنت تراه في رؤوس الآيات - لأنها فصول - حسنا. (113)

3- الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر ولد سنة 159هـ في البصرة، وفيها تلقى
العلم أول نشأته ثم رحل إلى بغداد واطلع فيها على علوم شتى مكنته من أن يكون
رائدا في كثير من العلوم وانتهت إليه الرياسة دون منازع في دفاعه عن العربية
وسيبقى بحق رائدا في كل مجال من مجالات العلوم والثقافة والإبداع، وقد خلّد

113- فضل عباس، التفسير أساسياته واتجاهاته، ص411-420، بتصرف واختصار، وكذلك: اتجاهات التفسير، فهد الرومي، ج2، ص873.

للتراث مكتبة تكاد تكون متكاملة تنتظم المعارف التي كانت معروفة إلى عهده. أصيب بالفالج في آخر حياته وتوفي بعد أن وقعت عليه كتبه في البصرة سنة 255هـ وعمره يربو على التسعين.⁽¹¹⁴⁾

والذي يعنينا من تراثه الخالد تلك المباحث القيمة في قضايا البلاغة القرآنية المتناثرة في كتبه سواء ما وصل إلينا منها أم لم يصل مما ذكره العلماء من بعده، أو أشير إليها في بعض آخر من مؤلفاته، ولعل أكثر هذه المباحث متضمن في كتابيه الموسومين بالبيان والتبيين والحيوان، فقد تحدث عن الإيجاز والتشبيه والمجاز والاستعارة والكناية وكثير من الفنون البديعة، إلا أنه ينقصها حسن التبويب والتنظيم.

وقد وجدناه يخص الكلمة القرآنية بعناية وهو يبين لنا خصائصها وأسرارها فالقرآن الكريم تختار فيه اللفظة التي تناسب الموضع الذي جاءت فيه، فقد يشترك لفظان أو أكثر في معنى ولكن أحدهما يكون أكثر دقة فيذكر في التزليل وهكذا فألفاظ القرآن مختارة منتقاة، وإن كان سيُظن لأول وهلة بأن بعضها مترادف إلا أن بينها من دقة الفروق ما يخفى على الكثيرين حتى ذوي النظر،⁽¹¹⁵⁾ يقول: وقد يستخفّ الناس ألفاظا وغيرها أحقّ بذلك منها ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة، وكذلك ذكر المطر لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام، والعامّة وأكثر الخاصة يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث، ولفظ القرآن الذي عليه نزل

114- الجاحظ، عمرو بن بحر، البخلاء، علق عليه حسان الطيبي، ط1، 2006، دار المعرفة، بيروت، مقدمة المحقق، ص6.

115- فضل عباس، التفسير أساسياته واتجاهاته، ص421.

أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين. ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين ولا السمع أسماعا والجاري على أفواه العامة غير ذلك لا يتفقون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال، وقد زعم بعض القراء أنه لم يجد ذكر لفظ النكاح في القرآن إلا في موضع التزويج.⁽¹¹⁶⁾

ومن هذه اللطائف كذلك أن بعض الكلمات تذكر متصاحبة مع غيرها لا تكاد تفترق مثل الصلاة والزكاة والجوع والخوف والجنة والنار والرغبة والرغبة والمهاجرين والأنصار والجن والإنس.⁽¹¹⁷⁾

فإذا تركنا حديث الألفاظ فإننا نجد حديث الجاحظ عن الصورة البيانية في القرآن حديثا متعدد الأمثلة متنوع التطبيق ومن أمثلته ما ذكره تفسيرا لقول الله عز وجل عن شجرة الزقوم: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾^(٦٥) الصافات: ٦٥، إذ قال في سداد وتوفيق: زعم ناس أن رؤوس الشياطين ثمر شجرة تكون ببلاد اليمن لها منظر كرية، والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير وقالوا ما عني إلا رؤوس الشياطين المعروفين بهذا الاسم من فسقة الجن ومردتهم، فقال أهل الطعن والخلاف ليس يجوز أن يضرب المثل بشيء لم نره فتوهّمه ولا وصفت لنا صورته في كتاب ناطق أو خير صادق، ومخرج الكلام يدل على التخويف بتلك الصورة والتفريع منها وعلى أنه لو كان شيء أبلغ في الزجر من ذلك لذكره، فكيف يكون الشأن كذلك والناس لا يفزعون إلا من شيء هائل شنيع قد عاينوه أو صورته لهم واصل صدوق اللسان بليغ في الوصف ونحن لم نعاينها ولا صورها لنا صادق،

116- الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، ط7، 1998، مكتبة الخانجي، القاهرة، ج1، ص20.

117- البيان والتبيين، ج1، ص21.

وعلى أن أكثر الناس من هذه الأمم التي تعايش أهل الكتابين وحملة القرآن من المسلمين ولم تسمع الاختلاف لا يتوهمون ذلك ولا يقفون عليه ولا يفزعون منه، فكيف يكون ذلك وعيدا عاما؟ قلنا وإن كنا نحن لم نر صورتها قط ولا صور رؤوسها لنا صادق بيده ففي إجماعهم على ضرب المثل بقبح الشيطان حتى صاروا يضعون ذلك في مكانين أحدهما أن يقولوا لهو أقبح من الشيطان والوجه الآخر أن يسمى الجميل شيطانا على جهة التطير له كما تسمى الفرس الكريمة شوهاء والمرأة الجميلة صماء قرناء وخنساء وجرباء وأشباه ذلك على جهة التطير له، ففي إجماع المسلمين والعرب وكل من لاقينا على ضرب المثل بقبح الشيطان دليل على أنه في الحقيقة أقبح من كل قبيح. (118)

لقد غدت إشارات الجاحظ العابرة كإسهاب المطيل مورد علل ونهل ومكان حظوة واحتفاء، وإن أديبا يترك صداه القوي في عقول تابعيه لجدير أن يُحفظ له مكانه الجهير في قمة كل طود تسنم ذراه. (119)

4- ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم الدِّينوري، أديب وفقه ومحدث ومؤرخ، ولد في الكوفة سنة 213هـ ونشأ في بغداد وتوفي فيها سنة 276هـ، كان إماما ضليعا في العربية له العديد من الكتب أشهرها: عيون الأخبار وأدب الكاتب والشعر والشعراء وتأويل مشكل القرآن. (120)

والذي يعنينا من كتبه النافعة الماتعة كتابه الجهير تأويل مشكل القرآن، فقد وقف عند كثير من آي القرآن الكريم يجلي ما فيها من بيان مما كان له أثر عند علماء

118- فضل عباس، التفسير أساسياته واتجاهاته، ص422-423.

119- المرجع السابق، ص427.

120- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، أدب الكاتب، تحقيق محمد طعمة حلي، ط2، 2001، دار المعرفة، بيروت، ص10.

البلاغة والإعجاز فيما بعد، ويردُّ بعض الشبهات عن البيان القرآني، والكتاب زاحر بالموضوعات القرآنية المتعددة.

لقد كان من همّ ابن قتيبة كما ذكر هو في مقدمة كتابه أن يثبت أن الأسلوب القرآني يطرد مع النسق البياني لدى العرب إيجازا وحذفا وتشبيها واستعارة وكناية وتقديما وتأخيرا، وأن ما يُرجف به المغرضون لغو لا يقرُّه من درس مذاهب العرب في القول ومناحيها في البيان. ثم يلج ابن قتيبة إلى هذه الأنواع من الأساليب العربية في كتاب الله تعالى من المتشابه والمجاز والكناية والاستعارة وغيرها، يقول في حديثه عن المجاز: هذا ومن أشنع جهالاتهم على سوء نظرهم وقلة أفهامهم ولو كان المجاز كذبا، وكل فعل ينسب إلى غير الحيوان باطلا كان أكثر كلامنا فاسدا لأننا نقول نبت البقل وطالت الشجرة وأينعت الثمرة وأقام الجبل ورخص السعر، ونقول كان هذا الفعل منك في وقت كذا وكذا، والفعل لم يكن وإنما كوّن، وتقول كان الله وكان بمعنى حدث، والله عز وجل قبل كل شيء بلا غاية لم يحدث فيكون بعد أن لم يكن، والله تعالى يقول: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ

لَهُمْ ۝٢١﴾ محمد: ٢١ وإنما يعزم عليه، ويقول: ﴿فَمَا رِيحَتِ بِجَنَرَتِهِمْ ۝١٦﴾ البقرة: ١٦ وإنما يريح فيها، ويقول: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ۝١٨﴾ يوسف: ١٨ وإنما كذب به، ولو قلنا للمنكر لقوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ ۝٧٧﴾ الكهف: ٧٧ كيف كنت قائلا في جدار ينقض أو يكاد ينقض أو يقارب أن ينقض، وأيا ما قال فقد جعله فاعلا ولا أحسبه يصل إلى هذا المعنى في شيء من لغات العجم إلا بمثل هذه الألفاظ.

وفي باب الاستعارة يقول: ومنه - من باب الاستعارة - قوله عز وجل: ﴿أَوْمَن

كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ (١٢٢) الأنعام: ١٢٢

أي كان كافرا فهديناه وجعلنا له إيمانا يهتدي به سبل الخير والنجاة ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ

فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ (١٢٣) الأنعام: ١٢٢ أي في الكفر، فاستعار الموت

مكان الكفر، والحياة مكان الهداية، والنور مكان الإيمان، ومنه قوله عز وجل: ﴿

وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾ (٢) الشرح: ٢ أي إثمك، وأصل الوزر ما حمله الإنسان

على ظهره، قال الله عز وجل: ﴿وَلَكِنَّا حُمَلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ (٨٧)

طه: ٨٧، أي أحمالا من حُلِيِّهم فشبه الإثم بالحمل فجعله مكانه، وقال في موضع

آخر: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ (١٣) العنكبوت: ١٣ يريد آثامهم.

ويبلغ المؤلف غاية الجودة حين يتبع لفظا واحدا من الألفاظ القرآنية ليرى كيف

مضت به الاستعارة إلى شتى المعاني، إذ لكل لفظ معناه الذي يهيئه له مكانه

ويحدد سياقه ونضرب لذلك المثال من قوله: ومن الاستعارة: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أُبْضِطَتْ

وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ آل عمران: ١٠٧، يعني جنته، سماها

رحمته لأن دخولهم إياها كان برحمته، ومثله قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ

وَأَعْتَصَمُوا بِهِ فَسُيِّدْهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ مِنْهُ وَفَضِّلْ﴾ (١٧٥) النساء: ١٧٥ . وقد

توضع الرحمة موضع المطر لأنه يتزل برحمته، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ

الرَّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴿٥٧﴾ الأعراف: ٥٧، يعني المطر، وقال: ﴿قُلْ لَّوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ الإسراء: ١٠٠، يعني مفاتيح رزقه، وقال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ فاطر: ٢، أي من رزق. (121)

وفي نهاية الحديث عن ابن قتيبة وكتابه النافع تأويل مشكل القرآن تجب الإشارة إلى كثير من الأمثلة والشروح والتي هي بمثابة الأعواد الخضراء التي ترعرعت فيما بعد فأنشأت شجرة البلاغة المتعددة الأفنان، بل بها ما لم يكد أن يزيد عليه البلاغيون شيئاً غير التفصيل والتفريع؛ ومن ذلك حديثه عن الاستفهام التقريري مستشهدا بنحو قول الله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمُوسَى﴾ طه: ١٧، والاستفهام التعجبي مستشهدا بنحو قول الله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ النبا: ١ - ٢، والاستفهام التويخي مستشهدا بنحو قول الله: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ الشعراء: ١٦٥، وكذلك فعل إذ تحدث عن الأمر التهديدي والأمر التأديبي والأمر المبيح لا الملزم؛ مما يحفظ للرجل مكانه في التقنين البلاغي لدى المنصفين. (122)

5- الرماني: علي بن عيسى أبو الحسن ولد سنة 296هـ إمام من أئمة المعتزلة، لم تقتصر إمامته على نوع خاص من أنواع المعرفة؛ بل جمع إلى العلوم العقلية كثيرا

121- فضل عباس، التفسير أساسياته واتجاهاته، ص 437-438.

122- فضل عباس، التفسير أساسياته واتجاهاته، ص 442-443.

من العلوم النقلية؛ فهو إمام في النحو واللغة والتفسير، وتوفي سنة 386هـ، كتب رسالة في الإعجاز القرآني سماها النكت في إعجاز القرآن التزم فيها القول الموجز واستعرض سبعة وجوه في الإعجاز كان أهمها هو البلاغة فقد أطنب الحديث عنها حيث استوعب أكثر رسالته.

أفاض المؤلف رحمه الله في الحديث عن البلاغة فذكر أن الكلام البديع تختلف مراتبه فمنه ما هو في أعلى طبقة وهو القرآن الكريم، ومنه ما يكون في الطبقة الوسطى وهو كلام البلغاء شعرا ونثرا، ومنه دون ذلك.

ويعرّف البلاغة بأنها: وصول المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ، ثم يذكر أقسام البلاغة، وهي عنده عشرة أقسام: الإيجاز والتشبيه والاستعارة والتلاؤم والفواصل والتجانس والتصريف والتضمين والمبالغة والبيان.

وما ذكره الرماني من أقسام البلاغة كان الأساس الذي اعتمد عليه علماء البلاغة فيما بعد. (123)

6- الخطابي: حمد بن محمد بن إبراهيم البستي أبو سليمان، ولد سنة 319هـ وتوفي 388هـ فقيه محدث، له مؤلفات كثيرة منها معالم السنن وبيان إعجاز القرآن وإصلاح خطأ المحدثين. في كتابه بيان إعجاز القرآن تحدث الخطابي عن أحد وجوه إعجاز القرآن وهو بلاغته وأسلوبه وما له من أثر وبهجة ورونق ومن عذوبة يجدها السامع في حسه وتهش لها نفسه.

وأكد الخطابي أن السبب الرئيسي الذي جعل القرآن يتبوأ هذه الرتبة العليا كامنٌ في القرآن نفسه، ومستمد منه وهو يرجع إلى أجناس الكلام، وأجناس الكلام لا تخرج عن واحد من ثلاثة:

- البليغ الرصين الجزل.

- الفصيح القريب السهل.

- الجائز الطلق الرسل.

وبلاغة القرآن اشتملت على هذه الثلاثة كما يقول الخطابي، وهذا صحيح فأنت حينما تقرأ في كتاب الله تعالى وهو يحدثك عن يوم القيامة وعما يكون للمكذبين فإنك تجد الكلمات الجزلة القوية كسورة الحاقة مثلاً، وحينما تقرأ ما أعد للمؤمنين تجد الكلمات السلسة العذبة، واستمع إلى سورة الإنسان، وفيما بين هذا وذاك تجد الوسط.

وربما تقرأ الآيات من كتاب الله فتجدها اشتملت على الأجناس الثلاثة معا وليس بعض هذه الثلاثة أبلغ من بعض؛ بل إن كل واحد في مكانه وسياقه هو آية الحسن.

والخطابي من أوائل الذين أشاروا وألحوا إلى قضية النظم بمعناها الدقيق عندما تحدث عن الكلام وما يقوم عليه من أمور ثلاثة:

- لفظ حامل

- معنى به قائم

- رباط لها ناظم. (124)

7- الباقلائي: محمد بن الطيب بن محمد أبو بكر، ولد سنة 338هـ وتوفي سنة 403هـ إمام من أئمة المتكلمين وشيخ من شيوخ الأشاعرة، انتهت إليه الرياسة في مذهبهم، وقاض من كبار علماء الكلام، جمع إلى كل هذا كثيرا من جوانب المعرفة، طويل الباع واسع الاطلاع في الكلام واللغة والأدب والبلاغة. كتب الباقلائي كثيرا من الكتب؛ مدافعا عن الدين، ذابا عن الكتاب والسنة، رادّا كل ما يلقيه خصوم الإسلام من شبهات، وما يوحون به من شكوك. من هذه الكتب إعجاز القرآن، والتمهيد، والانتصار.

أما كتابه إعجاز القرآن - وهو موضوع حديثنا - فإنه أشهر كتاب في الإعجاز؛ فلقد ظلّ على مدى القرون السالفة المرجع الوحيد لهذه المادة؛ بل إن كثيرا من المتخصصين لم يعرفوا غيره .

تحدث الباقلائي في كتابه عن وجوه للإعجاز؛ كان الأهمّ فيها هو النظم البديع.

ذكر الباقلائي معاني عشرة يشرح بها هذا الوجه:

أولاً: إن القرآن مغاير كل المغايرة لأساليب العرب في كلامها وفي كل ما عرفوه من فنون القول.

ثانياً: القرآن الكريم من أوله إلى آخره متساوٍ في البلاغة وليس بين آياته تفاوت واختلاف في درجات الفصاحة كما يعهد في كلام البلغاء.

ثالثا: كما أن التفاوت منتفٍ في درجات الفصاحة والبلاغة بين آياته فهو كذلك منتفٍ في موضوعاته ومعانيه، وهذا أيضا عسير على أي بليغ.

رابعا: من وجوه الإعجاز في القرآن ما فيه من جودة رصف، وإحكام سبك، وإتقان ربط.

خامسا: حتى الجن وهم أقدر من الأنس على الخوارق فإنهم عاجزون عن الإتيان بمثل هذا القرآن: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ الإسراء: ٨٨ .

سادسا: يشتمل القرآن على جميع أساليب العرب وفنون القول من الإطناب والإيجاز والاستعارة والتشبيه وغيرها ولكن على وجه لم يستطعه العرب.

سابعا: معاني القرآن وموضوعاته في أي باب من الأبواب الفكرية أو العقدية أو التشريعية معجزة لأي مخلوق مهما علا قدره واتسع فهمه.

ثامنا: في كلام الناس لا تجد إلا قليلا من الكلمات الرائعة الرائقة تتوجه إليها الأنظار وتشرئب إليها الأعناق، أما في كتاب الله فكل كلمة منه دالة على نفسها منادية بالروعة والبهاء.

تاسعا: الأحرف المقطعة في فواتح السور اشتملت على جميع صفات الحروف على رغم أنها نصف حروف الهجاء.

عاشرا: إن القرآن مع ما له من بلاغة إلا أنه سهل ميسر قريب، ليس بالغريب الصعب، وليس فيه كلام وحشي مستكره، وليس فيه ما يصعب على النطق أو ما تنفر منه النفس وتمجه، فالقرآن كله سهل ممتنع سبيله ميسر وصعبه مفسر.⁽¹²⁵⁾

8- الجرجاني: عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد واضح أصول البلاغة، وإمام في اللغة والأدب والنحو والبيان والنقد وإمام من أئمة الأشاعرة، له نتاج بديع في هذه المعارف وفي ما يتصل بالقرآن وبيانه ومن أبرزها الرسالة الشافية ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، توفي سنة 471هـ.

تحدث عبد القاهر عن البلاغة في أصالة معناها وسمو هدفها وغايتها قبل أن تكدر مواردها العذبة بالأجاج الذي لا يستحلى، والذي حولها إلى مجموعة من المصطلحات والتعقيدات التي لا تنفذ من منفذ الوجدان، لقد جاء عبد القاهر والناس مختلفون بين نصير للفظ يراه سبب البلاغة، ومقدم للمعنى يرى له الشرف والسبق؛ فوضع نظريته في المعاني، وهي نظرية النظم وأساسها الذي تقوم عليها أن اللفظ لا ينظر إليه من حيث هو لفظ، وإن المعنى لا ينظر إليه من حيث هو معنى، وإنما ينظر إلى الأول من حيث هو قالب للمعنى، وينظر إلى الثاني من حيث هو معبر عنه بهذا اللفظ، وتلك النظرية هي التي خصّها بكتاب دلائل الإعجاز. بقي أن جمال هذا النظم إنما يعظم ويحسن بقدر تأثيره بالنفوس وهذه خصصها بكتابه الثاني أسرار البلاغة، ولقد كانت دراسته فتحا جديدا في هذه الفنون وهو يطبق ذلك على أي الكتاب العزيز.⁽¹²⁶⁾

125- إعجاز القرآن الكريم، ص49-56، بتصرف واختصار.

126- التفسير أساسياته واتجاهاته، ص448-449، بتصرف واختصار.

ومن الأمثلة التي أوردتها وبلغ فيها الغاية شرحا وتفصيلا حديثه عن قوله تعالى: ﴿

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ﴾

الجمعة: ٥، يقول الإمام عبد القاهر: الشبه منتزع من أحوال الحمار وهو أنه يحمل الأسفار التي هي أوعية العلوم ومستودع ثمر العقول، ثم لا يحس بما فيها ولا يشعر بمضمونها ولا يفرق بينها وبين سائر الأحمال التي ليست من العلم في شيء ولا من الدلالة عليه بسبيل، فليس له مما يحمل حظ سوى أنه يثقل عليه ويكد جبينه، فهو كما ترى مقتضى أمور مجموعة ونتيجة لأشياء ألفت وقرن بعضها إلى بعض، بيان ذلك أنه احتيج إلى أن يراعى من الحمار فعل مخصوص وهو الحمل وأن يكون المحمول شيئا مخصوصا وهو الأسفار التي فيها أمارات تدل على العلوم، وأن يثالث ذلك بجهل الحمار ما فيها حتى يحصل المقصود.

إلى أن يقول: وإذ قد عرفت هذا فالحمل من هذا القليل أيضا لأنه يتضمن الشبه من اليهود لا إلى أمر يرجع إلى حقيقة الحمل بل لأمرين آخرين أحدهما تعديه إلى الأسفار والآخر اقتران الجهل للأسفار به.

ويستمر عبد القاهر وهو يفيض في الحديث عن تلك الآية: فإن قلت ففي اليهود شبه من الحمل من حيث هو حمل على حال، وذلك أن الحافظ للشيء بقلبه يشبه للحامل للشيء على ظهره، وعلى ذلك يقال حملة الحديث وحملة العلم، كما جاء في الأثر: يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، فالجواب: إن الأمر وإن كان كذلك فإن هذا الشبه لم يقصد ها هنا، وإنما قصد ما يوجبه تعدي الحمل إلى الأسفار مع اقتران الجهل بها وهو العناء بلا

منفعة، يبين ذلك أنك قد تقول للرجل يحمل في كفه أبدا دفاتر علم وهو بليد لا يفهم أو كسلان لا يتعلم وإن كان يحمل كتب العلم، فالحمار أيضا قد يحمل، تريد أن تبطل دعواه أن له في حمله فائدة، وأن تسوي بينه وبين الحمار في فقد الفائدة مما يحمل، فالحمل هاهنا نفيه موجود في المشبه بالحمار ثم التشبيه لا ينصرف إليه من حيث هو حمل، وإنما ينصرف إلى ما ذكرت لك من عدم الجدوى والفائدة، وإنما يتصور أن يكون الشبه راجعا إلى الحمل من حيث هو حمل، حيث يوصف الرجل مثلا بكثرة الحفظ للوظائف أو جهد النفس في الأشغال المتراكمة وذلك خارج عن الغرض مما نحن فيه. (127)

ومثال آخر في قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ (القمر: ١٢)، يقول الإمام عبد القاهر: التفجير للعيون في المعنى، وأوقع على الأرض في اللفظ كما أسند الاشتعال إلى الرأس في قوله تعالى: ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَكَبًا﴾ (مريم: ٤)، وقد حصل بذلك على معنى الشمول ها هنا مثل الذي هناك، وذلك أنه قد أفاد أن الأرض قد كانت صارت عيونا كلها، وأن الماء قد كان يفور من كل مكان فيها، ولو أجرى اللفظ على ظاهره فقل: وفجرنا عيون الأرض أو العيون في الأرض لم يفد ذلك ولم يدل عليه ولكان المفهوم منه أن الماء قد كان فار من عيون متفرقة في الأرض وتبجس من أماكن فيها. (128)

127- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، ط1، 1991، دار المدني، جدة، ص101، بتصرف يسير.

128- سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص32-33.

رحم الله الإمام عبد القاهر الذي أسس قواعد النظر في علم بلاغة الألسنة عامة وبلاغة اللسان العربي المبين خاصة، والذي شقَّ طريقاً جديداً سلكه من بعده العلماء والمجتهدون، فظل عندهم جميعاً إماماً مجتهداً مبرزاً، سبق إلى ما لم يخطه أحد قبله، وسيبقى نبراساً وسراجاً منيراً لكل من يريد السعي بهمة وإخلاص للكشف عن سر هذا الكتاب العزيز والبحث فيه.

9- الزمخشري: محمود بن عمر جار الله أبو القاسم، المولود سنة 467هـ والمتوفى 538هـ، لقد كان الزمخشري بحق إماماً ألعياً وجهبذا أحوذياً، جمع الكثير من علوم الدين والتفسير واللغة والأدب، سافر إلى مكة فجاور بها زمناً فلَقَّب نفسه بجار الله، له العديد من الكتب النافعة والماتعة، من أهمها وأكثرها اتصالاً بموضوعنا الكشف وهو التفسير الشهير الجهير.

جاء الزمخشري ليطبق نظرية عبد القاهر بخدافيرها كاملة غير منقوصة في تفسيره الكشف، ولا يعني هذا بالطبع أنه كان ناقلاً مترجماً، وإنما أعطي الرجل من البيان حظاً وافياً، وكان كما قال هو مقدمته: مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة وقادها.

لقد بقي الكشف على مدى العصور مدرسة ينهل منها طلاب البيان، بين مختصر ومسهب ومعلق، فلقد أفاد منه النسفي في عبارته كلها، ولقد ضغط البيضاوي تلك العبارة وتفنن فيها أبو السعود، وليس هؤلاء فحسب بل الفخر وأبو حيان وغيرهما كانت لهم عبارة الكشف مادة غزيرة يعجبون بها تارة ويردونها أخرى.

(129)

وسنقف هنا عند مثال واحد مما ذكره في تفسير لنرى مدى براعته وتفننه في عبارته وفهمه لأي كتاب الله، وكيف انتزع من خصومه ومنتقديه الاعتراف له بالفضل، يقول الزمخشري عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ (النحل: ١١٢)، فإن قلت الإذاقة واللباس استعارتان فما وجه صحتها؟ والإذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار، فما وجه صحة إيقاعها عليه؟ أما الإذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد وما يمس الناس منها. فيقولون: ذاق فلان البؤس والضرر، وأذاقه العذاب: شبه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المر البشع، أما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللبس: ما غشي الإنسان والتبس به من بعض الحوادث، وأما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف فلأنه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلبس، فكأنه قيل: فأذاقه ما غشيهم من الجوع والخوف. (130)

وفي هامش الكتاب عند تفسيره للآية يورد المحقق كلام أحمد بن المنير: وهذا الفصل من كلامه يستحق على علماء البيان أن يكتبوه بذؤب التبر لا بالحرير.

10- الألو سي: أبو الفضل شهاب الدين محمود المولود سنة 1217هـ والمتوفى سنة 1270هـ مفتي بغداد ومرجع أهل العراق علامة في المنقول والمعقول، وفهامة في الفروع والأصول، وصاحب روح المعاني التفسير الجامع لكل قديم والمشتمل على كل مفيد. (131)

130- الزمخشري، محمود بن عمر، الكشف عن حقائق غوامض التزويل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ط3، 2003، دار الكتب العلمية، بيروت، ج2، ص613-614.

131- الألو سي، شهاب الدين محمد، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار الفكر، بيروت، ج1، ص3-4.

لقد كان تفسيره روح المعاني جامعةً قرآنيةً لم يهمل فيها مسائل المتكلم ولا مشكلات النحوي ولا روايات الأثري ولا آراء الفقيه ولا نكات البياني ولا نفحات الصوفي أو شطحاته، فكان روح المعاني روح أقوال كل هؤلاء يزين ذلك كله تحقيق الرجل لكل تلك المسائل وإفاضته في ذلك كله. (132)

وبتفسير روح المعاني نطوي صفحة جهود المتقدمين لنفتح صفحة مشرقة وضاءة أخرى تحدثنا عن جهود علماء العصر الحديث في هذا الباب من موضوعنا: نشأة ومسيرة التفسير البياني.

132- فضل عباس، إتقان البرهان في علوم القرآن، ط2، 1997، دار الفرقان، عمان، ج2، ص285.

المطلب الثالث: التفسير البياني في العصر الحديث

1- محمد عبده: هو الأستاذ الإمام 1849م - 1905م كان مناصراً لثورة عرابي لذلك سجنه الإنجليز ثم نفّوه وهو في الرابعة والثلاثين من عمره إلى بيروت سنة 1882م وبعد ذلك عاد إلى مصر سنة 1888م ويومئذٍ ذاع صيته وتحلق الناس حوله وبعدئذٍ أيضاً نشب الخلاف بينه وبين علماء الأزهر واحتدم وتطاولت الكلمات على لسانه في ذمهم واذم مناهجهم⁽¹³³⁾ إلى أن توفي رحمه الله.⁽¹³⁴⁾

وجه الأستاذ الإمام جل عنايته بالقرآن الكريم إلى تجلية الهداية القرآنية وغلب عليه وعلى منهجه في دراسة الكتاب العزيز طابع الإصلاح الاجتماعي، إلا أنه وهو البليغ المجلي والأديب البارع والعالم المتبحر لم يغفل الجانب البياني ولا المنهج الأدبي في قراءته لكتاب الله تعالى، بل أستطيع القول إنه أولى هذا الجانب الكثير من الاهتمام في حلقاته الأزهرية وجلساته القرآنية، ولعل هذا ما يتضح جلياً في عدّه إعجازَ الأسلوب والنظم من أهم وجوه الإعجاز في القرآن، يقول: ولعمري إن مسألة النظم والأسلوب لإحدى الكبر وأعجب العجائب لمن فكر وأبصر، ولم يوفها أحد حقها على كثرة ما أبدؤوا وأعادوا فيها، وما هو بنظم واحد ولا بأسلوب واحد وإنما هو مائة وأكثر: القرآن مائة وأربع عشرة سورة متفاوتة في الطول والقصر من السبع الطوال إلى الوسطى إلى ما دونها، وكل سورة منها تقرأ بالترتيل المشبه للتلحين المعين على الفهم المفيد للتأثير على اختلافها في الفواصل وتفاوت آياتها في الطول والقصر، وهي على ما فيها من متشابه وغير متشابه في النظم متشابهة كلها في مزج المعاني العالية بعضها ببعض.

133- لمزيد من الاطلاع على هذا الخلاف انظر: مقدمة الشيخ محمود محمد شاكر لكتاب أسرار البلاغة للجرجاني.

134- أسرار البلاغة، طبعة شاكر، مقدمة التحقيق، ص 19.

ومن اللطائف البديعة التي يخالف بها نظم القرآن نظم كلام العرب من شعر أو نثر أنك ترى السور ذات النظم الخاص والقوافي المقفاة تأتي في بعضها فواصل غير مقفاة فتزيدها حسنا وجمالا في القلوب، وتأتي في بعض آخر آياته مخالفة لسائر آيها في فواصلها وزنا وقافية فترفع قدرها وتكسوها جلالا وتكسبها روعة وعظمة، وتجدد من نشاط القارئ وترهف من سمع المستمع، وكان ينبغي للخطباء والمتراسلين أن يحاكيوا هذا النوع من محاسنه وإن كانوا يعجزون عن معارضة السورة في حملتها أو الصعود إلى أفق بلاغتها. (135)

ولعل من المجدي قراءة كلام هذا الإمام لتعلم مدى اهتمامه بقضية النظم والأسلوب، فهذا تفسيره البديع والذي -والذي صاغه تلميذه محمد رشيد رضا- مليء بهذه اللمحات العبارات وتلكم النكات الشيقات والتي تعد القاعدة الأولى التي انطلق منها العلماء والمفسرون المعاصرون في تحديد منهج بلاغي وأدبي بديع سنحاول فيما بعد التعرض له والبحث عنه إن شاء الله.

وكذلك من الضروري إيراد أمثلة من هذه القاعدة الأدبية البيانية التي أسسها الأستاذ الإمام، وبعض من اللمحات المعبرات عن اهتمام بالغ بقضية البيان القرآني:

- وفي تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (الإخلاص: ٤)، يقول: أصل تركيب الآية ولم يكن أحد كفواً له، ولكن قدم المحرور لأن الحديث عن الله، وأشدُّ الاهتمام إنما هو بتزيينه، فقدم ضميره مع

الجار في حيز الكون المنفي، ثم قدم المنفي نفسه وهو الكفو لأن العناية موجهة إلى نفيه، وآخر من سلبت عنه المكافأة لأنه لم يؤت به في الكلام إلا لقصد تعميم النفي فقط، وإلا فقد كان يكفي أن يقال: وليس له كفؤ، لكن العبارة على ما في الآية آيين وأجمل والله أعلم. (136)

- في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ الشرح: ٥ - ٦، يقول: "ال" في العسر للاستغراق ولكنه استغراق المعهود عند المخاطبين من أفراد أو أنواعه؛ فهو العسر الذي يعرض من الفقر والضعف وجهل الصديق وقوة العدو وقلة الوسائل إلى المطلوب، ونحو ذلك مما هو معهود ومعروف، فهذه الأنواع من العسر مهما اشتدت وكانت النفس حريصة على الخروج منها طالبة لكشف شدتها، واستعملت من وسائل الفكر والنظر والعمل ما من شأنه أن يعدّ لذلك في معروف العقل، واعتصمت بعد ذلك بالتوكل على الله حتى لا تضعفها الخيبة لأول مرة ولا يفسخ عزيمتها من تلاقيه عند الصدمة الأولى، فلا ريب أن النفس تخرج منها ظافرة.. وتنكير اليسر لأن الذي يأتي بعد العسر أي نوع من أنواعه لا يختص بيسر معين والتعبير بالمعية لتوثيق الأمل بأنه لا بد منه كأنه معه. (137)

2- أمين الخولي: ولد سنة 1895م وتوفي سنة 1966م أحد دعاة التجديد والإصلاح ومفكر إسلامي عربي، وعضو في مجمع اللغة العربية في القاهرة، تخرّج في مدرسة القضاء الشرعي، وتسنى له السفر إلى إيطاليا حيث عُيّن في المفوضية المصرية بروما ثم عين مدرسا في كلية الآداب في الجامعة المصرية وظلّ يترقى فيها حتى عين رئيسا لقسم اللغة العربية واللغات الشرقية، ثم كوّن مدرسة أدبية باسم الأماناء مدرسة الفن والحياة، ترأس تحرير العديد من المجلات الأدبية والشرعية، وحمل لواء

136- التفسير أساسياته واتجاهاته، ص464.

137- أساسيات التفسير، ج2، ص879.

التجديد في الدراسات الأدبية والشرعية والاجتماعية، واعتبر أن المقصد الأول في دراسة القرآن الكريم هو درسه دراسة أدبية فهو كتاب العربية الأكبر، فبيانه وأدبه أولاً، ومن هذا المقصد تتفرع الغايات في دراسة الكتاب العزيز.⁽¹³⁸⁾ لقد دعا الأستاذ أمين الخولي إلى تفسير النص القرآني ودراسته دراسة أدبية كما تدرس النصوص الشعرية فهو أولى بها حيث هو كتاب العربية الخالد، كما أنه قرّر أن هذه الدراسة الأدبية يجب أن تسبق الدراسات الأخرى وهي الجديدة باسم التفسير.

وكانت خطته في ذلك على مراحل:⁽¹³⁹⁾

- المرحلة الأولى: التفسير الموضوعي وهو جمع الآيات ذات الموضوع الواحد من أماكنها المتفرقة، والنظر إليها نظرة واحدة، وردُّ أولِّها إلى آخرها، وفهم لاحقها بسابقها؛ وبهذا يكون الفهم الصحيح، فالناظر في قصة آدم عليه السلام في سورة البقرة لا يمكنه أن يتغاضى عن قصته في سور أخرى كالأعراف والحجر والكهف.

- المرحلة الثانية: الترتيب الزمني للآيات ذات الموضوع الواحد: يجب على المفسّر بعد جمعه لآيات الموضوع الواحد أن يرتب هذه الآيات حسب النزول؛ حيث إن ترتيب القرآن في المصحف لم يراع شيئاً من تقدّم الزمن وتأخره؛ فمكيّه يتخلل مدنيّه ويحيط به، ومدنيّه يتخلل مكّيّه ويحيط به. ثم يعرف مناسباتها وملابساتها الحافظة بها ثم ينظر فيها بعد ذلك لتفسير وتفهم فيكون ذلك التفسير أهدى إلى المعنى وأوثق في تحديده.

- المرحلة الثالثة: الدراسة، وتقسم إلى قسمين:

138- محمد علي شاهين، أعلام الصحوة، كتاب مخطوط أطلعني عليه المؤلف، بتصرف واختصار.

139- كان في ذلك نظر إلى ترتيب الدكتور فهد الرومي في كتابه اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر.

● دراسة ما حول القرآن

● دراسة في القرآن

أولاً: دراسة ما حول القرآن: وتقسم إلى قسمين أيضاً:

أ- دراسة خاصة قريبة إلى القرآن: لا بد منها لفهم النص القرآني كأسباب النزول والنسخ ومعرفة المكي والمدني وهي موضوعات علوم القرآن.

ب- دراسة عامة بعيدة عن القرآن: وهي دراسة البيئة التي نزل فيها القرآن وعوامل تكوينها سواء أكانت تلك البيئة طبيعية أم اجتماعية أو مادية أم معنوية.

ثانياً: دراسة في القرآن: وهي كذلك تقسم إلى قسمين:

أ- النظر في المفردات: في تدرج دلالة الألفاظ والأثر المترتب على هذا التدرج من جيل إلى جيل والنظر كذلك إلى الظواهر المتعددة المؤثرة. فدراسة اللفظة القرآنية ينبغي أن يراعى فيها أصل وضعها ومدلولها في العهد الذي نزلت فيه ثم التطورات التي جددت عليها بعد ذلك.

ومن المحاولات في هذا الباب كتاب المفردات للراغب الأصفهاني إلا أنه معجم قرآني ناقص بل بدائي على حد وصف الخولي.

ب- النظر في المركّبات: مستعينا بالعلوم الأدبية من نحو وبلاغة ولكن لا على أن الصنعة النحوية والبلاغية عمل مقصود لذاته بل على أنها أداة من أدوات بيان المعنى وتحديدده، وعلى أن النظرة البلاغية هي النظرة الأدبية الغنية التي تتمثل الجمال القولي في الأسلوب القرآني وتستبين

معارف هذا الجمال وتستجلي قسماته في ذوق بارع قد استشف
خصائص التراكيب العربية.

ثم أكّد على صلة التفسير بعلم النفس فاللمحة النفسية في المعنى القرآني ربما
تكون أحسم لخلاف بعيد الغور كثير الشعب بين المفسرين.

وكذلك أكّد على صلة التفسير بعلم الاجتماع؛ فلا بد للناظر في كتاب الله
تعالى من النظر في أحوال البشر في أطوارهم وأدوارهم ومناشئ اختلاف
أحوالهم من قوة وضعف وعز وذل وعلم وجهل وإيمان وكفر. (140)

3- عائشة عبد الرحمن بنت الشاطي: ولدت سنة 1912م وتوفيت سنة 1998م أديبة
وعالمة ومفسرة وهي زوجة الأستاذ أمين الخولي، أستاذة الدراسات القرآنية بكلية
الشريعة ودار الحديث بجامعة القرويين، وعملت في عديد من الجامعات على
امتداد العواصم العربية من الرباط إلى بيروت، لها العديد من المؤلفات من أهمها
فيما يختص بالدراسات القرآنية الإعجاز البياني للقرآن، التفسير البياني للقرآن
الكريم، وعددٌ آخر من الدراسات الأدبية منها تحقيقها لرسالي المعري: الغفران
والصاهل والشاحج، وغير ذلك الكثير. (141)

لبنت الشاطي كتاب في التفسير البياني فسّرت فيه بعض قصار السور؛ يعد هذا
الكتاب التطبيق العملي للنظرية التي اعتقدت بها وهي نظرية زوجها وأستاذها
أمين الخولي، فهي تبدأ بذكر المفردات ومدلولاتها اللغوية وعدد ورودها في القرآن

140- أمين الخولي، مناهج تجديد، 306-317، بتصرف واختصار، فهد الرومي، اتجاهات التفسير، ج2، ص886-899، بتصرف
واختصار، محمد رجب البيومي، التفسير القرآني، 140-141، فضل عباس، التفسير أساسياته واتجاهاته، 483-485.
141- أحمد العلاونة، ذيل الأعلام معجم تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار المنارة، جدة، ط2،
2002، ج2، ص96، باختصار.

وأقوال المفسرين فيها، ثم يأتي بعد ذلك دور المركبات، وكثيرا ما تحاول أن تبرز ناحية بلاغية وترشد إلى سرٍّ من أسرار التعبير.

فالقاعدة التي تنطلق منها في منهجها لتفسير القرآن الكريم هي ما نص عليها الأستاذ أمين الخولي؛ حيث عدت المقصد الأول للتفسير أدبي محض وأنه لا يستطيع أي باحث أو دارس للقرآن أن يبلغ مقصده دون أن يفقه أسلوبه الفذ ويهتدي إلى أسرارهِ البيانية، كي لا يغيب عنهم شيء من دلالاته. (142)

وقد جمع الدكتور فهد الرومي في كتابه: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر قواعد منهج بنت الشاطئ في تفسيرها مع سوقه للأمثلة والشواهد، وسأكتفي بذكر القواعد من غير الأمثلة والشواهد والتعليلات: (143)

أولا: العبرة بعموم اللفظ القرآني لا بخصوص السبب.

ثانيا: استقراء اللفظ القرآني في كل مواضع وروده.

ثالثا: الاهتمام بدلالة السياق.

رابعا: القرآن هو القاعدة.

خامسا: ترك الإطناب عما أُهم في القرآن الكريم.

سادسا: رفض التفسير العلمي التجريبي.

سابعاً: التفسير الموضوعي.

142- عائشة عبد الرحمن، التفسير البياني للقرآن الكريم، دار المعارف، القاهرة، ج1، ص15، بتصرف.

143- اتجاهات التفسير، ج2، ص927-949، بتصرف.

نماذج من تفسيرها:

تقول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَىٰ﴾ (٣٦) النازعات: ٣٦
والقرآن يستعمل البروز، وقوة الشخوص والظهور، في موقف القيامة والحساب،
ومنه آيات:

﴿وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ لِلْمُنْفِينَ﴾ (٩٠) ﴿وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ (٩١) الشعراء: ٩٠ - ٩١

﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (١٦)
﴿غافر: ١٦﴾

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ
أَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (٢١) ﴿إبراهيم: ٢١﴾

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ (٤٨) ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (٤٨)
﴿إبراهيم: ٤٨﴾

وتسمية جهنم بالجحيم في المصطلح الديني ملحوظ فيها الأصل اللغوي وهو شدة
تأجج نارها، فالجحيم والجحمة في اللغة: النار الشديدة التأجج، وكل نار بعضها
فوق بعض، وكل نار عظيمة في مهواة، والجاحم: الجمر الشديد الاشتعال،
والجحام: داء في العين، ومن المجاز: التجحم التحرق حرصا وبخلا أو غضبا.

وإسناد البروز إلى الجحيم بالبناء للمجهول تطّرد به الظاهرة الأسلوبية في صرف النظر عمدا عن الفاعل لأحداث القيامة تقريراً لفاعليتها التلقائية وتركيزاً للانتباه فيها. (144)

وتقول في تفسير لفظ المقابر في قوله تعالى: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۖ﴾ التكاثر: ٢:
ولفظ المقابر لم يأت في غير آية التكاثر على حين جاءت القبور خمس مرات كما جاء القبر مفرداً في سورة التوبة.

وقد تجد الصنعة البلاغية في استعمال المقابر هنا مجرد ملائمة صوتية للتكاثر، وقد يحس أهل البلاغة ونحس معهم فيها نسق الإيقاع بهذه الفاصلة، فهل تكون المقابر في آية التكاثر لرعاية الفواصل فحسب؟

المقابر جمع مقبرة وهي مجتمع القبور واستعمالها هنا يقتضيه معنواها، أنه اللفظ الملائم للتكاثر، الدال على مصير ما يتكالب عليه المتكاثرون من متاع دنيوي فان، هناك حيث مجتمع القبور ومحتشد الرمم ومساكن الموتى على اختلاف أعمارهم وطبقاتهم ودرجاتهم وأزمنتهم، وهذه الدلالة من السعة والعموم والشمول لا يمكن أن يقوم بها لفظ القبور بما هي جمع لقبر، فبقدر ما بين قبر ومقبرة من تفاوت يتجلى إيثار البيان القرآني المقابر على القبور، حين يتحدث عن غاية ما يتكاثر به المتكاثرون، وحين يلفت إلى مصير هذه الحشود من ناس يليهم تكاثرهم عن الاعتبار بتلك المقابر التي هي مجتمع الموتى ومزار الراحلين الفانين.

فتأويل المقابر بالقبور ليس إلا أثرا لتناول مفردات القرآن تناولا لفظيا معجميا، مجردا عن إحياء سياقه وسره البياني، معزولا عن الاستعمال القرآني الذي لم يجرى بالمقابر هنا لمجرد المشاكلة اللفظية والرنين الصوتي، وإنما هي الملاءمة المعنوية بين التكاثر والمقابر بما فيهما من سعة وشمول وعموم، وهو هو الإعجاز البياني يوجز رحلة الدنيا وعبرة الموت ونذر المصير في أربع كلمات فحسب، تفجأ اللاهين في نشوة الدنيا بصدمة "زرم المقابر" ليس بينها وبين "ألهاكم التكاثر" إلا "حتى" أداة غاية. (145)

هذا شيء من جهدها وهو بلا شك عمل له قيمته وأثره من بعدها، ولكن النقص يعتري كل عمل بشري، فقد ذكر الشيخ فضل عباس عددا من الملاحظات على تفسيرها أجملها فيما يلي:

- ملاحظتها للمفسرين فتأتي على أقوالهم ثم ترددها أو تبين ما فيها من قصور وعدم وفاء بالمعنى.
- ثم لومها لهم لإيرادهم أقوالا هي إلى الحشو أقرب على حد وصفها.
- وبأنهم يحملون في نفوسهم فكرة ما تسيطر عليهم فتأتي أقوالهم مشوشة. وغير هذا مما ذكره الشيخ مفصلا ومشفوعا بالأمثلة. (146)

4- ابن عاشور: محمد الطاهر، ولد في تونس سنة 1879م وتوفي فيها سنة 1973م.

شيخ الإسلام المالكي وشيخ الجامع الأعظم في تونس المعروف بجامع الزيتونة.

امتاز بمتانة علمه، وسعة ثقافته، وعمق نظره، وكثرة تدويناته وتحقيقاته ومؤلفاته.

145- التفسير البياني للقرآن الكريم، ج1، ص200-201.

146- التفسير أساسياته واتجاهاته، ص487-490، بتصرف واختصار شديد.

ومن أهم هذه المؤلفات على الإطلاق؛ تفسيره الجامع التحرير والتنوير، وكتابه في مقاصد الشريعة الإسلامية.

كتب العلامة ابن عاشور تفسيره هذا في نحو أربعين سنة، وقد كان هذا الكتاب أول تفسير كامل شامل للقرآن الكريم يصنف في بلاد تونس على مرّ التاريخ⁽¹⁴⁷⁾

لقد كان اهتمام ابن عاشور في تفسيره للقرآن الكريم موجهاً نحو فنّ البلاغة ودقائقها ونكتها، يقول في مقدمة الكتاب: وقد اهتمت في تفسيري هذا ببيان وجوه الإعجاز ونكات البلاغة وأساليب الاستعمال، واهتمت أيضاً ببيان اتصال الآي بعضها ببعض، وهو مترع جليل ... ثم يقول: ولم أغادر سورة إلا بينت ما أحيطُ به من أغراضها لئلا يكون الناظر في تفسير القرآن مقصوراً على بيان مفرداته، ومعاني جملة؛ كأنها فقر متفرقة، تصرفه عن روعة انسجامه، وتحجب عنه روائع جماله. واهتمت بتبيين معاني المفردات في اللغة العربية بضبط وتحقيق، مما خلت عن ضبط كثير منه قواميس اللغة، وقد بذلت الجهد في الكشف عن نكت من معاني القرآن وإعجازه خلت عنها التفاسير.⁽¹⁴⁸⁾

وقد وضع بين يدي تفسيره عشر مقدمات جليلات النفع:

-المقدمة الأولى: في التفسير والتأويل وكون التفسير علماً.

-المقدمة الثانية: في استمداد علم التفسير.

147- الطباع، إياد خالد، محمد الطاهر بن عاشور علامة الفقه وأصوله والتفسير وعلومه، ط1، 2005م، دار القلم، دمشق، 25-27،

بتصرف واختصار، 95-97، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج30، 558.

148- التحرير والتنوير، ج1، 8.

-المقدمة الثالثة: في صحة التفسير بغير المأثور، ومعنى التفسير ونحوه.

-المقدمة الرابعة: فيما يحق أن يكون غرض المفسر.

-المقدمة الخامسة: في أسباب التزول.

-المقدمة السادسة: في القراءات.

-المقدمة السابعة: في قصص القرآن.

-المقدمة الثامنة: في اسم القرآن وآياته وسوره وترتيبها وأسمائها.

-المقدمة التاسعة: في أن المعاني التي تتحملها جمل القرآن تعتبر مرادة بها.

-المقدمة العاشرة: في إعجاز القرآن.

نماذج من استقرائاته في كتاب الله تعالى:

يقول رحمه الله تعالى في مقدمته العاشرة التي تحدث فيها عن إعجاز القرآن وتحت

عنوان "مبتكرات القرآن": وقد تتبع أساليب من أساليب نظم الكلام في القرآن

فوجدتها مما لا عهد بمثلها في كلام العرب، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ

إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝ رَسُولًا يَنْتَلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ الطلاق: ١٠ - ١١، فإبدال

"رسولاً" من "ذكراً" يفيد أن هذا الذكر ذكرُ هذا الرسول، وأن مجيء الرسول هو

ذكر لهم، وأن وصفه بقوله: ﴿يَنْتَلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ الطلاق: ١١، يفيد

أن الآيات ذكر، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ

يَنُلَوِّهُ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿البينة: ١ - ٢﴾ (149).

ويقول تحت عنوان "عادات القرآن": وقد استقرت بجهد عادات كثيرة في اصطلاح القرآن سأذكرها في مواضعها، ومنها: أن كلمة "هؤلاء" إذا لم يرد بعدها عطف بيان يبين المشار إليهم فإنها يراد بها المشركون من أهل مكة، كقوله

تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ﴾ الزخرف: ٢٩ ، وكقوله: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا

هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ الأنعام: ٨٩ . ثم يقول: وقد

استقرت أنا من أساليب القرآن أنه إذا حكى المحاورات والمجادلات؛ حكاها بلفظ "قال" دون حروف عطف، إلا إذا انتقل من محاوراة إلى أخرى، انظر قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا

مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ البقرة: ٣٠ ، إلى قوله: ﴿قَالَ يَتَدَأْمُ أَنْبِئُهُمْ

بِأَسْمَائِهِمْ﴾ البقرة: ٣٣ . (150)

5- سيد قطب: ولد سنة 1906م وتوفي سنة 1966م أحد رواد الفكر الإسلامي

وأعلام الأدب العربي وشهيد الحركة الإسلامية ومنظر مسيرتها في العصر الحديث،

انقطع إلى التأليف والكتابة، وانضم إلى جماعة الإخوان المسلمين، وقضى مدة

طويلة في السجون أخرج خلالها عددا من أهم كتبه، منها جزء كبير من تفسيره

في ظلال القرآن، له العديد من المؤلفات منها التصوير الفني في القرآن، ومشاهد

149- التحرير والتنوير، ج1، 120.

150- التحرير والتنوير، ج1، 122-123.

القيامة في القرآن، ومعالم في الطريق الذي ضمنه خلاصة فكره الحركي. قضى شهيدا عندما أصر النظام المصري آنذاك على إعدامه حيث رفض الاعتذار والتراجع عن مواقفه الدعوية وأفكاره الحركية. عمل في وزارة المعارف موظفا مدة 8 سنوات حتى أوفدته الوزارة إلى الولايات المتحدة الأمريكية في رحلة عملية ميدانية يقوم فيها بزيارة الجامعات والمعاهد العلمية في أميركا، ويطلع على مناهجها التعليمية ليعود فيطبقها على مناهج التعليم في بلاده. (151)

أما كتابه التصوير الفني في القرآن فيقوم على فكرة أن هذا التصوير هو الأداة المفضلة للتعبير والقاعدة الأساسية في الكتاب العزيز، عدا آيات الأحكام بالطبع، وهذا التصوير ليس للمعاني المجردة فقط، بل هو للحالات النفسية والحوادث التاريخية والقصص والأمثال كذلك، وهذا التصوير يقوم على التجسيم المحسوس والتخييل، وهو إذ يأتي بأمثلة لكل ذلك يشعر القارئ وكأنه أمام مناظر بديعة تصور حالات من مشاهد الكون أبدعتها ريشة فنان، بل والحق يقال إن ما تحدثه الآيات في النفس أعظم وأكثر روعة وأشد أثرا من تلك. ويتحدث بعد ذلك عن التناسق الفني في الآيات من إيقاع بين أجزائها وتلاؤم بين ألفاظها ومعانيها، ومواقع كمواقع النجوم لكلماتها. (152)

ولعلي هنا أقف قليلا لأذكر مثلا واحدا على هذه المعاني التي ذكرها سيد لنقف على روعة هذه الأداة المفضلة في التعبير القرآني، يقول سيد: هذا ظالم يقف يوم

151- المصادر الإسلامية، محمد علي شاهين، كتاب مخطوط.

152- التفسير أساسياته واتجاهاته، ص 477-478.

القيامة وكأنما هو واقف وحده على المسرح يبدئ ويعيد في الندم، حتى لتهم بأن تقول له: كفى يا أحناء فلا فائدة! مع أن المدة التي يستغرقها قصيرة نسبياً، ولكن يخيّل أنها طويلة طويلة: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ (٢٧) يُؤَلِّقُ لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فَلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (٢٩) الفرقان: ٢٧ - ٢٩، فهذا الندم الطويل والتذكر لما مضى مصحوباً بالنعمة الطويلة الممتلئة والموسيقى المتموجة المديدة، يخيّل إليك الطول ولو أن اللفظ نسبياً قليل وإطالة موقف الندم تتسق مع التأثير الوجداني المطلوب. (153)

في ظلال القرآن

وهو تفسيره الجهير، ومنهجه العملي الذي أراد صاحبه رحمه الله أن يطبق نظرية أبدعها قلمه هو في كتابه التصوير الفني آنف الذكر.

فبدأ بنشره على هيئة مقالات شهرية في جريدة "المسلمون" حتى أتم تفسير القرآن كاملاً على هذا النهج في سنة وأربعة أشهر.

أما منهجه في تفسيره فامتاز بعدد من الأسس، قام بتفصيلها الدكتور فهد الرومي في كتابه اتجاهات التفسير وسأكتفي بذكرها من غير شرح خشية الإطالة:

أولاً: الأسلوب الأدبي.

ثانيا: تذوق النص القرآني.

ثالثا: الواقعية الحركية.

رابعا: التفسير الجمالي الفني.

خامسا: استيحاء النص دون مقررات سابقة.

سادسا: الوحدة الموضوعية.

سابعا: ترك الإطناب عما أُجْم في القرآن.

ثامنا: التحذير من الإسرائيليات.

تاسعا: ترك الاختلافات الفقهية.

عاشرا: اجتناب الإغراق في المسائل اللغوية.

حادي عشر: رفض التفسير العلمي. (154)

لقد كان حريّا بي ألا أقف عند هذه النقاط مجملا دون تفصيل، وموردا دون
تعليل، وذاكرا دون وقوف وشرح وإسهاب، ولكني قدمت العذر من خشية
الإطالة والخروج عن غاية هذه الدراسة، خاصة أني لا أقف هنا على درس
اتجاهات التفسير وطرائق التفسير، وإنما أعرض لها موضّحا ومقدّما بين يدي
دراستي لسورة الرحمن.

وبعد: فقد بقي لنا في هذا الباب أن لا ننسى حق من كان الوسيط الأمين والناقل الدقيق عن الجيل الذي دوّن خبره آنفاً، فهؤلاء هم الذين كان لهم كبير الأثر وعظيم الفضل في دراسة أعمال تلك الثلة المباركة من العلماء من لدن الأستاذ الإمام صاحب الإشراقة العلمية الأولى في العصر الحديث، لأنه إنما كان قيام دراسات ممنهجة على أسس علمية دقيقة تحفظ لهم حقهم وتذكّر الناس بفضلهم، إنما كان ذلك بجهدٍ بذله هؤلاء العلماء الوسطاء قام على أكتافهم فأسهروا ليلهم وحملوا أقلامهم ودوّنوا وكتبوا؛ فأذاعوا بين الناس علمهم وشرحوا لطلبة العلم كتبهم، وهذه سنة العلم ودأب العلماء، خلف أمين ينقل عن سلف عظيم، فأذكر على سبيل المثال دوّماً حق أوفيه أو واجب أؤديه:

1- الدكتور محمد رجب البيومي: ولد سنة 1923م عميد كلية اللغة العربية بجامعة المنصورة، حفظ القرآن في صغره، والعديد من المتون ودواوين الشعراء، أصدر كتابين عن البيان القرآني، أحدهما خطوات التفسير البياني والذي عرض فيه لجهود الذين حاولوا تجلية هذا البيان ابتداء من عصر الصحابة رضوان الله عليهم إلى ما سطره المحدثون. والكتاب الثاني هو البيان القرآني تحدث فيه عن المظاهر المتعددة في هذا البيان وتحدث عن جزالة القرآن ودقته وحقيقته ومجازه وقصصه واتساق آياته، وعن الوحدة الموضوعية في آراء العلماء والمفسرين، والدكتور البيومي أديب متميز وكاتب مكثّر. (155)

2- الأستاذ الدكتور فاضل السامرائي: ولد سنة 1933 ترعرع في أحضان عائلة متمسكة بدينها ونشأ محباً للقرآن والعربية، درس اللغة العربية في دار المعلمين

155- أعلام الصحوة، التفسير أساسياته واتجاهاته، 496.

العالية في بغداد ثم أكمل دراسة الدكتوراة في جامعة عين شمس في مصر، ثم عاد إلى بغداد ودرس في جامعتها، وعُيِّن فيها عميدا لكلية الدراسات الإسلامية المسائية، وهو الآن أستاذ مادة النحو والتعبير القرآني في جامعة الشارقة، وله على شاشة قناة الشارقة برنامج أسبوعي يعرض فيه اللمسات البيانية في القرآن الكريم. أصدر العديد من الكتب المتخصصة، وكثير منها اهتم بالقرآن وبيانه منها:

- التعبير القرآني: وهو دراسة في الإعجاز البياني للقرآن من خلال النص القرآني، من حيث التشابه والاختلاف في التعبير والتقديم والتأخير والذكر والحذف وما إلى ذلك، وتحدث فيه أيضا عن السمة التعبيرية للسياق والحشد الفني في القصص القرآني.
 - بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: يتحدث فيه عن الإبدال والوصف والإفراد والتثنية والجمع وتعاور المفردات.
 - لمسات بيانية في نصوص من الترتيل: في هذا الكتاب يختار المؤلف آيات من الكتاب العزيز ليستخرج منها درر البيان القرآني ويدل على مواطن الفن والجمال في التعبير الفني القرآني الرفيع.
 - على طريق التفسير البياني (جزءان): نهج فيه المؤلف أسلوب القدماء في تفسير السورة آية آية ولكنه تفسير بياني لا تحليلي وقد كان هذا الكتاب الإشارة الأولى لي لدراسة سورة الرحمن في هذه البحث، وقد كان الجزء الأول منه في تفسير عدد من قصار السور، ثم أتبعه بثانٍ درس فيه سورتي يس ولقمان.
- (156)

3-الأستاذ الدكتور فضل حسن عباس: لئن كنت قد حرمت من لقاء كثير من العلماء الذين تتوق النفوس للقائهم والتحدث إليهم، وتشتاق الأبصار الرانية إلى رؤيتهم

والنظر إلى وجوههم، لظروف زمانية ومكانية حالت بيني وبين هذا اللقاء؛ فقد أكرمني الله بقاء آخرين قرّرت عيني برؤيتهم واستقرت نفسي بالجلوس معهم وأنست روعي بالتحدث إليهم، ولست مبالغا إن قلت: إن على رأس هذه الثلة المباركة من العلماء الأستاذ الدكتور فضل عباس أمد الله في عمره ونفع به.

لقد أكرمني الله حقا بقاء هذا الشيخ الجليل والإفادة من علمه الثرّ الغزير، فللشيخ عباس حضور في النفس قوي، فهو الكاتب البليغ والمتحدث البديع والعالم البحر، صاحب البصيرة النافذة والأذن الواعية والرأي السديد والحجة الباهرة، لقد أنضى الشيخ مطايا عمره في كتاب الله تعالى يردد آياته، ويفسر عباراته، ويشرح للناس ما عسر عليهم فهمه منه، فتارة يكتب وأخرى يخطب وثالثة يلقي دروسه مديعا أو محاضرا أو واعظا. وللشيخ درس أسبوعي في كل اثنين، يلقي فيه من درر القرآن وعلوم الحديث، ومسائل الشرع؛ على ثلة من جلسائه وخلصائه ومريديه.

أصدر الشيخ العديد من الكتب والمؤلفات، جلّها إن لم يكن كلّها في القرآن وعلومه؛ فكتب في علوم القرآن كتابه الجامع المانع إتيان البرهان في علوم القرآن، وكتب في التفسير ومناهجه كتباً عديدة صدر منها كتابان اثنان وما زالت السلسلة تتوالى، وكتب في البلاغة كتباً ثلاثة، وكتب أيضاً في القراءات والإعجاز القرآني، وهذا الكتاب الذي تحدث فيه عن الإعجاز خصّص جزءا كبيرا منه للإعجاز البياني، وترى بصمات الشيخ في هذا الجزء واضحة جلية فهو لا يكتفي بنقل أقوال السابقين وإيرادها بل تراه ينقدها ويضيف جديدا ويبدع في كل حين.

تحدث الشيخ في هذا الكتاب عن الكلمة القرآنية وخصائصها والقيم التي تعطيها هذا المفردات، وردّ دعوى الترادف في القرآن، وكذلك تحدث عن الحرف

ورسالته واستعماله مختلفا في أماكن متشابهة، وتحدث عن الجملة القرآنية في محاور ثلاثة: التأكيد في آياتٍ وتركه في أخرى، وحذف كلمات في آيات وذكرها في أخرى، وتقديم كلمات في آيات وتأخيرها في أخرى، وكذلك تحدث عن الفاصلة القرآنية وإعجازها، ثم فصل في قضية التكرار ودعوى الزيادة.

أطال الله عمر الشيخ ونفع الأمة بعلمه وأحى مواثها بغيثه المنهمر الصيّب النافع.

الفصل الثالث

التعريف بسورة الرحمن

المبحث الأول: بين يدي السورة

المبحث الثاني: تصنيف السورة

المبحث الثالث: توصيف السورة

المبحث الرابع: مناسبتها لما قبلها وما بعدها

المبحث الأول: بين يدي السورة

سورة الرحمن سورة مكّية على الراجح من قول العلماء، وقد تكون مبكرةً في النزول، وهذا يقتضي أنها تعالج أصول العقيدة التي كان التركيز عليها كبيراً في تلك المرحلة المبكرة من الدعوة الإسلامية، كما في جميع السور التي أجمع العلماء على مكّيتها.

والسورة كما هو واضح ابتدأت بالتنويه بنعم الله الظاهرة وآلائه الباهرة، وابتدأت من ذلك بنعمة القرآن الكريم، كيف لا وهو المنة الكبرى والنعمة العظمى، وهو هبة السماء إلى الأرض، والقانون المهيمن على أهلها، والنفخة الإلهية في أرواحهم، والتي تمدّهم إحساساً بالوجود وشعوراً بالحياة، ولذلك قدّم بالذكر على خلق الإنسان؛ فبالقرآن تتحقق للإنسان معنى الإنسانية، ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ (٢) الرحمن: ٢.

ثم تلا ذلك تعداد لنعم أخرى جليّة من صحائف الوجود، ناطقةً بوجوب شكر الله تعالى والإكثار من ذكره والحث على عبادته؛ الشمس والقمر، والنجم والشجر، وسماء مرفوعة بلا عمد، وأرض مزروعة بلا جهد؛ في هذا كله وفي غيره أيضاً إشارة إلى ارتباط الوجود بخالقه المبدع، واتصال الكون بصانعه العظيم، ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ (٦) الرحمن: ٦.

وفي هذه السورة أيضاً حديثٌ عن قدرة الله تعالى فيما أتقن من خلق، وما أبدع من إنشاء؛ خلّق الإنسان، وخلّق الجنّ، وتسييرُ الأفلاك، وتسخيرُ السفن التي تخر عباب البحر وكأنها الجبال الشاهقة عظيمة وضخامة ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ﴾ (٢٤) الرحمن: ٢٤.

وبعد ذلك وفي سرعة واضحة وإشارة لامية، يعظ القرآنُ الناسَ بالفناء والتلاشي، والطبي والتواري، عن صفحة الوجود، حيث يفرغ من كل حي، ويتجلى وجه الكريم الباقي منفردا بالبقاء والجلال، ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٢٧) الرحمن: ٢٧.

ومن هذه الإشارة الدالة واللمحة السريعة يخلص إلى التذكير بيوم الحشر والجزاء، حيث يعرض لمشهد الانقلاب الكوني، وما يعقبه من مشاهد الحساب ومشاهد العذاب والثواب؛ فالجرمون الأشقياء تُجمع أقدامهم إلى جباههم ويقذفون على هذه الهيئة في النار، والمتقون المؤمنون، يساقون بالتكريم والنعيم إلى جنتين اثنتين ذواتي أفنان ندية ريّانة نضرة، ومن دونهما أخريان، أكرمنا الله بنعيمه وجعلنا من أهل جنته، ﴿وَلِمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ (٤٦) الرحمن: ٤٦.

وفي ختام السورة تسبيحُ باسم الجليل الكريم صاحب النعمة الكبرى والمنة العظمى على الإنسان وعلى كل مخلوق، الذي يُفني كل حي ويبقى وجهه الكريم، ﴿نَبِّزَكَ أَنتُمْ رَبِّكَ ذِي الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٧٨) الرحمن: ٧٨. (157)

157- سيد قطب، في ظلال القرآن، ط15، 1988م، دار الشروق، القاهرة، ج6، ص3445-3458. محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ط1، 2000م، مؤسسة التاريخ، بيروت، ج27، ص214-216. الزمخشري، محمود بن عمر، الكشف، ط3، 2003م، دار الكتب العلمية، بيروت، ج4، ص432. محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ط5، 1981م، دار القرآن الكريم، بيروت، ج3، ص292-293. سعيد حوى، الأساس في التفسير، ط1، 1985م، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ج10، ص5645-5648. الفيروزبادي، محمد بن يعقوب، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، المكتبة العلمية، بيروت، ج1، ص447-448. وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشرعة والمنهج، ط2، 2003م، دار الفكر، دمشق، ج14، 206-207.

المبحث الثاني: تصنيف السورة

المطلب الأول: نسب السورة (مكية أم مدنية)

كما أشرت سابقا إلى ترجيح كون سورة الرحمن سورة مكية، أعود هنا للقول: إن هذا القول هو قول جمهور الصحابة والتابعين.

وقد ذكروا من سبب نزولها - وهو ما سيعرض لاحقا - أنها جاءت ردّا على قول المشركين المحكي في القرآن: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ الفرقان: ٦٠. فيكون نزولها بعد سورة الفرقان وهي سورة مكية.

وكذلك ما جاء أنها ردّ على قول آخر للمشركين محكي في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ مَّرْكُومٌ﴾ النحل: ١٠٣. فيكون نزولها كذلك بعد سورة النحل المكية.

وقد روي أن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر والمشركون يسمعون، يقرأ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾⁽¹⁵⁸⁾ وهذا يقتضي نزولها قبل سورة الحجر.

وفي السيرة أن ابن مسعود جهر بقراءتها في المسجد حتى قامت إليه أندية قريش فضربوه وذلك قبل الهجرة، وذلك أن الصحابة قالوا: ما سمعت قريش هذا القرآن يُجهر به قط، فمن رجل يسمعه موه؟ فقال ابن مسعود: أنا، فقالوا: إنا نخشى عليك وإنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه، فأبى ثم قام عند المقام فقال: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝﴾ الرحمن: ١-٢،

158- أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ج44، 517، رقم: 26955.

ثم تَمَادَى رافعا بها صوته وقريش في أنديتها، فتأملوا وقالوا: ما يقول ابن أمّ عبد؟ قالوا: هو يقول الذي يزعم محمد أنه أنزل عليه، ثم ضربوه حتى أثروا في وجهه. (159)

وهناك قول آخر يرجح مدنية سورة الرحمن، وهو رأي جماعة من التابعين عن ابن عباس، وأنها نزلت في صلح الحديبية عندما أبى سهيل بن عمرو أن يكتب في رسم الصلح "بسم الله الرحمن الرحيم". (160)

وكذلك تُسب إلى ابن مسعود أنها مدنية.

ونقل قول آخر عن ابن عباس يؤكد مكيّتها سوى آية منها، هي قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ

مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (الرحمن: ٢٩)، ولكنه استثناء يأباه السياق.

وبهذا تتأكد مكيّة السورة - والله أعلم - وأنها نزلت قبل سورة الحجر وسورة فاطر، وبعد سورة الفرقان. (161)

ولعلّ في دراسة السياق ما يمكن الباحث من تأكيد مكيّة السورة، وكذلك بعد دراسة خصائص الطابع المكي في القرآن الكريم، ومن هنا يمكن القول إن أغراض السورة - والتي ذكر جزء منها سابقا - تشير بجلاء إلى تأكيد أصول العقيدة الإسلامية في نفوس المسلمين بعد تطهيرهم من أوضاع الوثنية الجاهلية، وكذلك تركيزها على مشاهد البعث والجزاء

159- أخرجه ابن هشام في السيرة، ط1، دار الفكر، ج1، 314-315، وابن الأثير في أسد الغابة، ط2، 2002، دار الكتب العلمية، بيروت، ج3، 385-386.

160- أخرجه البخاري في المغازي، باب: عمرة القضاء، رقم: 4251، ومسلم في الجهاد والسير، باب: صلح الحديبية، رقم: 1783.

161- عبد الحق بن عطية الأندلسي، المخرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ط1، 1991م، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر، ج14، ص177-178. الآلوسي، روح المعاني، دار الفكر، بيروت، ج15، ص148-149. ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج27، 214-215. التفسير المنير، ج14، 204-206.

ومشاهد العقاب والثواب، وهذه الموضوعات - كما هو معلوم - ركن ركين من أصول القسم المكيّ في القرآن.

والنظر كذلك إلى أسلوب السورة وما فيه من جزالة في تقرير القواعد وعرض المشاهد وقصر الآيات، وما امتازت به آيات الوعد والوعيد في السورة، فكانت آيات الوعيد قوارع مزججة غاضبة كأنما هي الرعد القاصف، وكانت آيات الوعد النسيم العاطر سلاسة وعذوبة؛ كل ذلك خير دليل على مكيّتها. (162)

المطلب الثاني: سبب النزول (163)

ليست سورة الرحمن - كما بدا لي - من ذوات الأسباب، وليس كل سورة في القرآن أو كل آية منه يقتضي نزولها سببا معروفا كان أم مجهولا، فالقرآن الكريم كتاب هداية وتشريع يصلح لخطاب الناس كلّ الناس في كل مكان وعلى امتداد الزمان، وحمل الآية أو السورة على مناسبة أو سبب إبطال لمراد الله من التزليل وحصر لكتاب الله في زمان نزوله، يقول ابن عاشور في مقدمته الخامسة لتفسيره الجامع "التحرير والتنوير": إن القرآن كتاب جاء لهدي أمة والتشريع لها، وهذا الهدي قد يكون وارداً قبل الحاجة، وقد يكون مخاطباً به قوم على وجه الزجر أو الثناء أو غيرهما، وقد يكون مخاطباً به جميع من يصلح لخطابه، وهو في جميع ذلك قد جاء بكليات تشريعية وتهذيبية، والحكمة في ذلك أن يكون وعي الأمة لدينها

162- فضل عباس، إتقان البرهان في علوم القرآن، ط1، 1997م، دار الفرقان، عمان، ج1، ص375-376، انظر: عدنان محمد زرزور، علوم القرآن وإعجازه وتاريخ توثيقه، ط1، 2005، دار الأعلام، عمان، 217-218، النقاط من 1-4، تحت عنوان: الفروق البيانية والأسلوبية، محمد قطب، دراسات قرآنية، ط8، 2004، دار الشروق، القاهرة، 20.

163- المقصد من هذا المطلب الإشارة إلى المعنى الوارد في بدايته؛ وهو عدم وجوب ارتباط كل آية بمناسبة نزول.

سهلاً عليها، ولْيُمْكِن تواتر الدين، وليكون لعلماء الأمة مزية الاستنباط. ⁽¹⁶⁴⁾ وهذه كتب علوم القرآن زاخرة بهذا المعنى في أبواب أسباب النزول.

ولقد أشرت في المطلب السابق إلى أسباب نزول ذكرها المفسرون في كتبهم سأعيد ذكرها للإشارة إلى أنه لم يذكر لهذه السورة أسباب نزول في الكتب المعنية بذلك، ككتاب الواحدي والسيوطي أو غيرهما، وعلى هذا فالقول ما ذكره ابن عطية في تفسيره المحرر الوجيز وابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير.

يقول ابن عاشور: إن سبب نزولها - أي سورة الرحمن - قول المشركين المحكي في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ الفرقان: ٦٠، وهو ذاته قول ابن عطية عندما رجّح مكّيّة السورة. ⁽¹⁶⁵⁾

ويقول أيضاً: وقيل في سبب النزول قول المشركين: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ ^{قَد} نُسِيَ﴾ النحل: ١٠٣، فردّ القرآن على مزاعمهم بأن الله هو الذي علم النبي صلى الله عليه وسلم القرآن، وكذلك ردّ على مزاعمهم أن القرآن أساطير الأولين أو أنه سحر أو أنه كلام كاهن أو شعر. ⁽¹⁶⁶⁾

ذكر ابن كثير - وغيره من المفسرين - في أول كلامه على سورة الرحمن حديث جابر الذي رواه الترمذي عن محمد بن المنكدر أنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها، فسكتوا فقال: لقد قرأتها على

164- التحرير والتنوير، ج27، ص215. المحرر الوجيز، ج14، ص177.

165- التحرير والتنوير، ج1، ص48، وفي هذه المقدمة عظيم نفع لمن أراد الفائدة، وانظر: زرزور، علوم القرآن وإعجازه، 204-207.

166- التحرير والتنوير، ج27، ص215-216.

الجن ليلة الجن فكانوا أحسن مردوداً منكم، كنت كلما أتيت على قوله تعالى: ﴿فَيَأْتِي
ءَالَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا شيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد. (167)

ولكنّ هذا الحديث كما هو واضحٌ وجليّ ليس سببَ نزول، وإنما هو فضل للسورة
أو إخبار من النبي لصحابته بتزول سورة جديدة قرأها عليهم وقد كان من قبل قرأها على
الجن فكانوا أحسن رداً من الصحابة، فقال ما قال عليه الصلاة والسلام.

167- محمد علي الصابوني، مختصر تفسير ابن كثير، ط7، 1981م، دار القرآن الكريم، بيروت، ج3، ص415. والحديث أخرجه
الترمذي في كتاب أبواب تفسير القرآن، باب: ومن سورة الرحمن، رقم: 3291، وقال عقبه: هذا حديث غريب.

المبحث الثالث: توصيف السورة

المطلب الأول: ترتيبها في التلاوة والتزول

سورة الرحمن في التلاوة هي السورة الخامسة والخمسون في المصحف العثماني، وهي السورة الخامسة من قسم المفصل، بعد سور: الذاريات، الطور، النجم، القمر، وهي في مصحف ابن مسعود أول المفصل. ويليهما في العثماني سورة الواقعة.

أما بالنسبة لترتيبها في التزول - وقد تم الإشارة إلى ذلك - فلم يُحقق القول برتبتها للاختلاف الواقع في زمن نزولها. فمن بنى قوله على مدنيتهما عدّها ثامنة وتسعين، وجعلها بعد سورة الرعد وقبل سورة الإنسان.

ومن بنى على مكّيتهما - وهو الراجح - عدّها ثالثة وأربعين، وجعلها قبل سورة فاطر وبعد سورة الفرقان.

وآياتها عند أهل الشام والكوفة ثمانٍ وسبعون، وعند أهل مكة والمدينة سبع وسبعون، وعند أهل البصرة ستٌ وسبعون.⁽¹⁶⁸⁾

المطلب الثاني: فضلها

عن علي رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لكل شيء عروس، وعروس القرآن سورة الرحمن.⁽¹⁶⁹⁾

168- التحرير والتنوير، ج27، 215. الأساس في التفسير، ج10، ص5639. روح المعاني، ج15، ص148-149.
169- أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1410هـ، بتحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، ج6، 37، رقم: 2494.

وظاهر المعنى أي: لكل جنس أو نوع واحد من جنسه يزينه، تقول العرب: عرائس الإبل لكرائمها؛ فإن العروس تكون مكرمة مزينة مرعية من جميع الأهل بالخدمة والكرامة، ووصفُ سورة الرحمن بالعروس تشبيه ما تحتوي عليه من ذكر الخبرة والنعيم في الجنة بالعروس في المسرة والبذخ، تشبيه معقول بمحسوس، ومن أمثال العرب: لا عطر بعد عروس، أو تشبيه ما كثر فيها من تكرير قوله تعالى: ﴿فَإِنِّيَ إِلَّا رَيْكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ بما يكثر على العروس من الحلّي في كل ما تلبسه. (170)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ سورة الرحمن أدى شكر ما أنعم الله عليه. (171)

وفي تفسير القرطبي: أن قيس بن عاصم المنقري قال للنبي صلى الله عليه وسلم: اتل عليّ مما أنزل عليك، فقرأ عليه سورة الرحمن، فقال: أعدها، فأعادها ثلاثاً، فقال: والله إن له لطلاوة، وإن عليه لحلاوة، وأسفله لمغدق، وأعلاه مثمر، وما يقول هذا بشر، وأنا أشهد ألا لا إله إلا الله، وأنت رسول الله. (172)

وعن جابر بن عبد الله أنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها، فسكتوا فقال: لقد قرأتها على الجن ليلة الجن

170- التحرير والتنوير، ج27، 214.

171- الكشف، ج4، 443.

172- أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج17، ص151.

فكانوا أحسن مردودا منكم، كنت كلما أتيت على قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا شيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد. (173)

173- مختصر تفسير ابن كثير، ج3، ص415، تكرر هذا الحديث مرتين، هنا وعند الحديث عن سبب النزول، وذلك لأنه واضح وصريح في فضل السورة، كما جاء هناك ردا على من عدّه سببا للنزول والله تعالى أعلم.

المبحث الرابع: مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها

المطلب الأول: مناسبتها لما قبلها

في سورة القمر حملة مفزعة عنيفة على المكذبين بالنذر، وفيها عرض لمشاهد متعددة من مصارع الأقوام المكذبة الكافرة، وفي ختام السورة إشارة سريعة خاطفة إلى عاقبة هذه الأقوام الضالة المستكبرة: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرٌ ۚ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ۚ﴾ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ﴿القمر: ٤٦ - ٤٨﴾ ، ولهذه الإشارة الخاطفة وهذا الإجمال السريع توسع وتفصيل في سورة الرحمن من وصف لمرارة الساعة، وإشارة إلى شدتها، وعرض لمشهد الانقلاب الكوني الحاصل عندئذ، ثم وصف للنار وأهلها: ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ۚ﴾ ﴿٤١﴾ فَإِنِّي آتٍ بكم بِكُذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانِ ﴿٤٤﴾ ﴿الرحمن: ٤١ - ٤٤﴾ .

وفي ختام سورة القمر آيتان اثنتان هما كذلك إشارة سريعة للمتقين وما يستحقونه من ثواب جزاء لما قدموا من إيمان وثيق وعمل صالح: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۚ﴾ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِندَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ ﴿٥٥﴾ ﴿القمر: ٥٤ - ٥٥﴾ ، وقد كان تفصيل هذا الإجمال في سورة الرحمن عندما ذكر الخائفين مقام ربهم، والمشفقين من عذابه: ﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۖ﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿الرحمن: ٤٦﴾ ، ومن ثم وصف لما حوَّته هذه الجنان من أفنان نديّة وعيون جارية وفاكهة وفيرة.

يقول الألوسي: فصل إجمال سورة القمر في سورة الرحمن أتم تفصيل على الترتيب
الوارد في الإجمال، فبدأ بوصف مرارة الساعة، والإشارة إلى شدتها، ثم وصف النار وأهلها
ولذا قال سبحانه: ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسْمِهِمْ﴾ (٤١) الرحمن: ٤١، ولم يقل الكافرون أو
نحوه، لاتصاله معنى بقوله تعالى هناك: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ (٤٧) القمر: ٤٧، ثم
وصف الجنة وأهلها ولذا قال تعالى فيهم: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ (٤٦) الرحمن: ٤٦
وذلك هو عين التقوى، ولم يقل: ولمن آمن أو أطاع أو نحوه، لتوافق الألفاظ في التفصيل
والمفصل، ويُعرف بما ذكر أن هذه السورة كالشرح لآخر السورة قبلها. (174)

ثم قال نقلا عن أبي حيان: ولما أبرز قوله سبحانه: ﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ﴾ (٥٥) القمر:
٥٥، بصورة التنكير فكأن سائلا يسأل ويقول: من المتصف بهاتين الصفتين الجليلتين؟ ف قيل:
﴿الرَّحْمَنُ﴾ (١) الرحمن: ١. (175)

ويقول أبو السعود في تفسيره: لما عدّ في السورة السابقة ما نزل بالأمم السالفة من
ضروب نعم الله عز وجل، وبيّن عقيب كلّ ضربٍ منها أن القرآن قد يُسرّ لحمل الناس على
التذكر والاعتاظ، ونعى عليهم إعراضهم عن ذلك؛ عدّد في هذه السورة الكريمة ما أفاض
على كافة الأنام من فنون نعمه الدينية والدنيوية الأنفسية والآفاقية، وأنكر عليهم إثر كل فنٍّ
منها إخلالهم بمواجب شكرها. (176)

174- روح المعاني، ج15، ص149.

175- روح المعاني، ج15، ص149.

176- أبو السعود محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار المصحف، القاهرة، ج8، ص176. التفسير

المنير، ج14، 205-206.

المطلب الثاني: مناسبتها لما بعدها

عرضت سورة الرحمن لأصناف ثلاثة من الناس:

الصنف الأول: المجرمون وما استحقوه من عذاب أليم.

الصنفان الآخران: السابقون: ﴿وَلِمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۖ﴾ الرحمن: ٤٦،

وأهل اليمين: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّاتٍ ۖ﴾ الرحمن: ٦٢، ولكن من غير تسمية أو تحديد.

وفي سورة الواقعة تفصيل لهذه الصنوف الثلاثة من الناس مع تسميتهم وذكر مراتبهم

وما ينالونه من استحقاق في الدار الآخرة؛ المجرمون والسابقون وأهل اليمين: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا

ثَلَاثَةَ ۖ﴾ الواقعة: ٧، يقول سيد في الضلال: وفي سورة الواقعة نرى أن أصحاب الجنة

فريقان كبيران، هما السابقون المقربون وأصحاب اليمين ولكل منهما نعيم، فهنا - أي في

سورة الرحمن - نلمح أن هاتين الجنتين في قوله تعالى: ﴿وَلِمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۖ﴾

الرحمن: ٤٦، هما لفريق ذي مرتبة عالية، وقد يكون فريق السابقين المقربين المذكورين في

سورة الواقعة، ثم نرى جنتين أخريين: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّاتٍ ۖ﴾ الرحمن: ٦٢، من دون

هاتين، ونلمح أنهما لفريق يلي ذلك الفريق، وقد يكون هو فريق أصحاب اليمين. (177)

يقول الألوسي: سورة الرحمن وسورة الواقعة متواخيتان في أن في كل منهما وصف

القيامة والجنة والنار، وينقل عن أبي حيان: مناسبتها - أي الواقعة - لما قبلها أنه تتضمن

العذاب للمجرمين والنعيم للمؤمنين، وفاضل سبحانه بين جنتي بعض المؤمنين وجنتي بعض

آخر منهم، فانقسم المكلفون بذلك إلى كافر ومؤمن فاضل ومؤمن مفضل، وعلى هذا جاء ابتداء هذه السورة من كونهم أصحاب ميمنة وأصحاب مشأمة وسابقين، وقال بعض الأجلة: انظر إلى اتصال قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۚ﴾ (١) الواقعة: ١، بقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ ۚ﴾ (٣٧) الرحمن: ٣٧، وأنه اقتصر في الرحمن على ذكر انشقاق السماء وفي الواقعة على ذكر رجّ الأرض، فكأن السورتين لتلازمهما واتحادهما سورة واحدة، فذكر في كل شيء وقد عكس الترتيب فذكر في أول هذه ما في آخر تلك وفي آخر هذه ما في أول تلك، فافتتح في سورة الرحمن بذكر القرآن ثم ذكر الشمس والقمر ثم ذكر النبات ثم خلق الإنسان والجان ثم صفة يوم القيامة، ثم صفة النار ثم صفة الجنة، وهذه ابتداءؤها بذكر القيامة ثم صفة الجنة ثم صفة النار ثم خلق الإنسان ثم النبات ثم الماء ثم النار ثم ذكرت النجوم ولم تذكر في الرحمن كما لم يذكر هنا الشمس والقمر ثم ذكر الميزان فكانت هذه كالمقابلة لتلك وكالمتضمنة لرد العجز على الصدر. (178)

الفصل الرابع

أدوات التفسير البياني في سورة الرحمن

المبحث الأول: المتشابه اللفظي في الآيات ودراسة ألفاظ السورة

المبحث الثاني: التقديم والتأخير والذكر والحذف

المبحث الثالث: التصوير الفني

المبحث الرابع: منهج القرآن في قضية التكرار

المبحث الأول: التشابه اللفظي في الآيات ودراسة ألفاظ السورة

المطلب الأول: التشابه اللفظي في الآيات

في هذا المطلب سأحاول جاهداً أن أدرس التشابه اللفظي من آيات السورة الكريمة مع غيرها من السور من خلال السياقات القرآنية في كل سورة؛ لاستيضاح الإعجاز القرآني وتبين الفارق في الأساليب الذي كان سبباً في عجز العرب عن معارضة القرآن الكريم أو مجرد التفكير في ذلك والله ولي التوفيق.

1- قال تعالى: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۚ ﴾ الرحمن: ٣.

وقال في ذات السورة: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ۚ ﴾ الرحمن: ١٤.

وقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۚ ﴾ الحجر: ٢٦.

وقال: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۚ ﴾ النحل: ٤.

وقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ۚ ﴾ المؤمنون: ١٢.

وقال: ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ۚ ﴾ ثمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ

﴿ السجدة: ٧ - ٨. ﴾

وقال: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۚ ﴾ العلق: ٢. (179)

179- من الالفت للنظر أن جميع السور السابقة الذكر والتي تحدثت عن خلق الإنسان بهذه الصيغة سور مكية، ولا عجب فمحور السور المكية هو القضية الكبرى قضية العقيدة، وما يتصل بها من إيمان ووحداية وما يتعلق بذلك من دلائل وآيات كخلق السموات والأرض وخلق الإنسان وغيرها.

ولعل في دراسة سياق كل سورة من هذه السور التي ورد فيها طور من أطوار خلق الإنسان مختلف عن غيره ما يعين على فهم القرآن فهماً صحيحاً دون تكلف أو تعسف، فما في القرآن لفظ إلا جاء في حاقٍّ موضعه وفي صحيح مكانه. لقد عرضت سورة الحجر لقصة البشرية الكبرى، قصة الفطرة الأولى، قصة الهدى والضلال، قصة آدم؛ ممَّ خُلِق؟ وماذا صاحب خلقه وتلاه؟

لقد سبق ذكرَ هذه القصة مقدِّمةً وتمهيداً فيه إشارة إلى التمكين للإنسان في الأرض، وإلى استخلافه فيها: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿الحجر: ١٩ - ٢٠﴾. ثم ابتدأ عرض القصة بذكر المادة الأولى التي تم خلق الإنسان منها بعد تقرير خلقه وتأكيده، ثم ذكر خلق الجن ومادته وعوامل التكوين وتأثيراته في كل منهما، ثم نفخ الله في الإنسان من روحه المشرق الكريم، ثم عرض حكاية سجود الملائكة، وإباء إبليس، وطرده لهذا ولعنته، ثم طلبه الإنظار إلى يوم البعث وإجابته على ذلك، ثم انتهى بمصير هؤلاء وهؤلاء إلى جنةٍ أو نارٍ في غير حوارٍ ولا عرضٍ ولا تفصيل، لأن السياق يريد عرض هذه المشاهد لغاية بيان السر في تكوين آدم فهو نقطة التركيز؛ ولذلك استوفى بيانها وأجمل في غير ذلك، ولهذا كان ذكره لمادة الخلق الأولى: ﴿مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾ (٢٦) ﴿الحجر:

٢٦. (180)

وفي سورة النحل المكية معالجة لقضية العقيدة الكبرى، الألوهية والوحي والبعث ولكنها تلم بموضوعات أخرى جانبية تتعلق بتلك القضية الكبرى، وتدور حولها؛ تلم بالوحدانية التي تصل بين دين إبراهيم عليه السلام ودين محمد صلى الله عليه وسلم، وتلم بحقيقة الإرادة الإلهية والإرادة البشرية فيما يختص بالإيمان والكفر والهدى والضلال، وتلم بوظيفة الرسل وسنة الله في المكذبين لهم، وتلم بالهجرة في سبيل الله، وبغيرها من موضوعات السلوك القائم على العقيدة، كل هذا في إطار فسيح شامل هو السماوات والأرض والماء الهاطل والشجر النامي والليل والنهار والشمس والقمر والنجوم، والبحار والجبال والأنهار، فالموضوع هو التوحيد، وأدواته هي آيات الله في الخلق، ومنها خلق الإنسان فاكتمى لذلك بإشارة سريعة موحية دالة إلى خلق الإنسان من نطفة إشارة إلى النقلة الكبيرة بين المبدأ والمصير، بين النطفة الساذجة والإنسان المخاصم الجاحد.⁽¹⁸¹⁾

لقد كان في العرض في سورة "المؤمنون" المكية تناولاً للإيمان بكل قضاياها ودلائله وصفاته كمحور رئيسي تدور حوله آثاره ودواعيه فالسورة تبدأ بذكر صفات المؤمنين المفلحين ثم تستطرد إلى دلائل الإيمان في النفس - في خلق الإنسان - وفي الأطوار التي مر عليها خلقه وإنشاؤه عند النشأة الأولى من سلالة من طين إلى النهاية حيث المصير المقدر متوسعا في عرض أطوار الجنين مجملا في عرض المراحل الأخرى متابعا خط الحياة البشرية إلى البعث يوم القيامة، والتناسب بين التفصيل وبين السياق الذي تسيّر فيه السورة على مراحل أربعة واضحٌ وبين.

تبدأ المرحلة الأولى بتقرير الفلاح للمؤمنين ثم تبين صفات هؤلاء المؤمنين الذين كتب لهم الفلاح ثم تعقيب على ذلك بذكر دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق. وأما المرحلة الثانية فهي انتقال من دلائل الإيمان إلى حقيقة الإيمان وهي التوحيد الذي توافق عليه جميع الرسل من لدن آدم عليه السلام وحتى محمد صلى الله عليه وسلم، ثم عرض للعاقبة التي يستحقها المكذبون بإهلاكهم.

وفي المرحلة الثالثة كان الحديث عن تفرق الناس بعد الرسل وتنازعهم حول تلك الحقيقة الواحدة وعن غفلتهم عن الله وابتلائه لهم بالنعمة واغترارهم بما هم فيه من متاع بينما المؤمنون المفلحون مشفقون من خشية ربهم يعبدونه ولا يشركون به وهم مع ذلك دائمو الخوف والحذر: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً تَوْأَمَ قُلُوبِهِمْ وَجِلَّةٌ أُنْفُسُ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (٦٠) المؤمنون: ٦٠.

والمرحلة الأخيرة يدعهم وشركهم وزعمهم ثم يعرض مشهدا من مشاهد يوم القيامة وما فيه من عذاب ومهانة وتأنيب. إذاً فالسياق عرض متسلسل لغاية الخلق وقصة البشرية فاقضى ذلك تفصيل في مرحلة النشأة لحل التكليف وهو الإنسان تضمّن ذلك عرض أطوار الخلق على هذا الشكل. (182)

أما سورة السجدة وعلى الرغم من أنها مكية وعلى رغم تناولها ذات القضايا العقدية التي تناولتها السور المكية الأخرى إلا أن لهذه السورة نسقاً مختلفاً وسياقاً مغايراً عن أخواتها المكيات وعن سورة "المؤمنون" على وجه الخصوص.

ابتدأت هذه السورة بقضية الوحي، وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم في التبليغ عن رب العالمين.

ثم عرضت لقضية الألوهية وأثرها في صفحة الوجود؛ في خلق السموات والأرض وما بينهما وفي الهيمنة على الكون والتدبير للأمر، ثم في نشأة الإنسان وخلقها بشكل مختصر مقصود، وأعقبت ذلك بقضية البعث والشك فيه خاصة بعد

الموت: ﴿وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ السجدة: ١٠ .

ثم عرضت لمشهد من مشاهد يوم القيامة علّه يوقظ فيهم الشعور بضرورة الإيمان قبل فوات الأوان، وإلى جوار هذا يعرض مشهداً للمؤمنين بآيات الله، الذين لا يستكبرون وأصحاب النفوس الخاشعة، والجنوب المتجافية عن المضاجع خوفاً وطمعاً، وما أعد لهم مما خفي على الناس لتقر به عيونهم وتهدأ نفوسهم.

ثم ترد إشارة إلى موسى عليه السلام والذين صبروا معه على الدعوة وتكاليها وكيف كان جزاؤهم بما صبروا أن جعلهم أئمة هداة مهتدين.

وتعقب هذه الإشارة جولة في مصارع الغابرين من القرون وهم يمشون في مساكنهم غافلين.

وتختتم السورة بحكاية قولهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنْتُمْ

صَادِقِينَ﴾ السجدة: ٢٨، والإجابة بالتخويف من هذا اليوم، وتوجيه الرسول صلى الله عليه وسلم للإعراض عنهم وتركهم لمصيرهم المحتوم.

فسياق السورة العام يقتضي ذكر الخلق دون توسع واستطراد إذ جاءت في محل عرض قضية العقيدة الضخمة من خلال عرضها في صفحة الكون ومشاهده ومنها

الإنسان، فذكرها بهذا القدر كافٍ لمن أراد الاتعاظ والاعتبار والتصديق ونفي الشك والريب، على العكس من عرضها في سورة "المؤمنون" والتي استوفت النشأة البشرية حتى نهايتها إلى مصيرها المقدّر. (183)

في سورة العلق وفي مطلعها الذي اتفق العلماء على أنه أول ما نزل من هذا القرآن العربي المبين؛ كان الخطاب موجهاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقد ابتداءً باسم الله وبصفة الخلق والبدء على التحديد من كثير صفاته سبحانه وتعالى، ثم خصص ذلك بخلق الإنسان من علق.

والعلق: تلك القطعة الدموية الجامدة الغليظة العالقة بالرحم، ولعل اختيارها من دون غيرها من أطوار خلق الإنسان المتعددة هو الحكمة الإلهية البالغة في كتاب الله المقروء وفي صفحة الوجود المنظور، حيث إن هذه الآيات هي أول القرآن نزولاً على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن ثم إلى جميع الناس، حيث طوبى عليه السلام بالتبليغ والدعوة، فاقترضت الحكمة الإلهية باليسير على النبي وعلى الناس المخاطبين بهذا القرآن؛ فأراد أن يخاطبهم بما عهدوه وعرفوه من تكوين الجنين، فذكر العلق المتكونة في الرحم وهذا مما يعرفه العرب ولا ينكرونه، ولو أنه خاطبهم بغيره كما هو الحال في سور أخرى نزلت فيما بعد لاستنكروا ذلك أشد النكير، ولقل المصدق والمؤمن برسول الله صلى الله عليه وسلم ولشق الأمر على النبي، ولتعسّرت مهمة التبليغ؛ خاصة أن المفاجأة باختيار رجل منهم لهذه المهمة لم تكن بالأمر اليسير تصديقاً.

وكذلك لعل اختيار "العلق" دون غيره لما أنه أول مرحلة مشتركة في تكوين الجنين؛ فعدل عن النطفة لأنها طور من الأطوار قبل امتزاجها بماء المرأة، وعدل عن المضغة؛ إذ العلقه أسبق منها، وكل هذا مما يعرفه العرب ولا ينكرونه. فتكون الفاصلة متساوقة مع المعنى دون تكلف واصطناع والله تعالى أعلم. وأما سياق سورة الرحمن - والذي عرض فيما سبق من صفحات - فهو سياق امتنان الخالق على الإنسان بآلائه ونعمه فكان التعداد هو وسيلة هذا الامتنان. ابتداءً ذلك بنعمة القرآن وتعليمه، ثم بخلق الإنسان من غير وصف ولا شرح إلى تعليمه البيان والذي هو الركن الأساسي لاستخلاف الإنسان في الأرض، ثم تلا ذلك ذكر العديد من النعم في الكون والآفاق ثم العودة ثانية إلى خلق الإنسان مع تبين مادة النشأة الأولى وهي الصلصال. والصلصال هو الطين الذي يترك حتى ييبس وصار له صوت وصلصلة عند الضرب عليه، وهو شبيه بالفخار إلا أن الفخار هو ما ييبس بالطبخ بالنار. إذاً فالسياق هنا سياق امتنان وتذكير لا إسهاب وتفصيل. (184)

2- قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ﴾ (١٥) الرحمن: ١٥.

وقال: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَّارِ السَّمُومِ﴾ (٢٧) الحجر: ٢٧.

في سورة الرحمن ذكر المارج، وهو: المختلط من اللهب المشتعل المتحرك كألسنة النار مع الرياح، وقد ذكر في مقابل الصلصال في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾

﴿١٤﴾ الرحمن: ١٤، وهو شبيه بالفخار لتعرضه للنار؛

فذكر اللهيب المشتعل في مقابل الصلصال الذي تعرض للنار.

وفي سورة الحجر ذكر السموم: وهو الريح الحارة التي تؤثر تأثير السم، فذكرها

مقابل الحمأ المسنون، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ

مَسْنُونٍ﴾ ﴿٣٦﴾ الحجر: ٢٦، والحمأ هو الطين إذا اسودَّ وكرهت رائحته،

والمسنون: الذي طالت مدة مكثه.

والجامع بينهما النتن والرائحة الكريهة، فالمقابلة بين النتانة والسم القاتل، والله

تعالى أعلم. (185)

	﴿صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾
المقابلة فيهما بين النار وما تعرض للنار.	﴿مَارِجٍ مِنْ نَّارٍ﴾
المقابلة فيهما بين النتانة والسم	﴿صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾
القاتل.	﴿نَّارِ السَّمُومِ﴾

3- قال تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ (١٧) الرحمن: ١٧.

وقال: ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ (٢٨) الشعراء: ٢٨.

وقال: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ (٩) المزمّل: ٩.

وقال: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَدِرُونَ﴾ (٤٠) المعارج: ٤٠.

في سورتي الشعراء والمزمّل جاءت بالإفراد وفي سورة الرحمن بالثنائية وفي سورة المعارج بالجمع.

يقول الراغب في المفردات مجملًا ما قيل في أكثر التفاسير: المشرق والمغرب إذا قِيلَا بالإفراد فإشارة إلى ناحيتي الشروق والغروب، وإذا قِيلَا بلفظ الثنائية فإشارة إلى مطلعي ومغربي الشتاء والصيف، وإذا قِيلَا بلفظ الجمع فاعتبار بمطلع كل يوم ومغربه أو بمطلع كل فصل ومغربه. (186)

والملاحظ عند دراسة السياق في كل سورة والنظر إليه بدقة وتمعن، أن محل الخطاب في سورتي الشعراء والمزمّل مفرد، حيث جاء اللفظ مفردًا؛ فهو في سورة الشعراء فرعون وفي سورة المزمّل النبي صلى الله عليه وسلم، أما محل الخطاب في سورة الرحمن فهما الأنس والجن؛ حيث كان اللفظ مثنى، ومحل الخطاب في سورة المعارج هو جمع الذين كفروا فكان اللفظ جمعا، والله تعالى أعلم.

186- المفردات، 451، بصائر ذوي التمييز، ج3، 311، روح المعاني، ج11، 108، ج16، 112، التحرير والتنوير، ج19، 134، ج29، 166-167، ج29، 249، الظلال، ج5، 2593، ج6، 3703، ج6، 3746، المحرر الوجيز، ج14، 189-190.

ولعلي أختتم بقول سيد رحمه الله عند تعليقه على قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ

الْمَغْرِبَيْنِ﴾ (١٧) الرحمن: ١٧ : وعلى أية حال فإن ظلال هذه الإشارة هي الأولى بالالتفات، ظلال الاتجاه إلى المشرق والمغرب والشعور بالله هناك، والإحساس بيده تحرك الكواكب والأفلاك، ورؤية نوره وربوبيته في الآفاق هنا وهناك، والرصيد الذي يؤوب به القلب من هذا التأمل والتدبر والنظر في المشرق والمغرب والزراد الشعوري الذي تفيض به الجوانح وتذخره الأرواح. (187)

4- قال تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (٢٤) الرحمن: ٢٤.

وقال أيضا: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (٣٢) الشورى: ٣٢.

نلاحظ وجود لفظ المنشآت في سورة الرحمن دون سورة الشورى ومن خلال دراسة السياقات قد يتبين السبب وتتضح الفروق.

ففي سياق سورة الرحمن كما مر في هذا البحث مراراً سياق امتنان بالتعداد ابتداءً بتعليم القرآن إلى تعلم البيان إلى ذكر آيات الله تعالى في الأنفس والآفاق والكون. ومن ذلك مَنْ اللهُ تعالى على الإنسان بتسيير السفن واختراقها لعباب البحر وثبجه، وما أودعه فيه وألهمه إياه من القدرة على صنعها وإنشائها.

والسياق في سورة الشورى سياق تفصيل وتوسّع في الحديث عن الوحي والرسالة وما يتصل بحقيقة الوجدانية وعرضها من جوانب متعددة تتحدث عن وحدانية الخالق ووحدانية الرازق ووحدانية المتصرف في القلوب ووحدانية المتصرف في المصير ويأتي ذلك استعراض لبعض آيات الله في بسط الرزق وقبضه وفي خلق

السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وفي الفلك الجوّاري في البحر كالأعلام.

وقد عَقَّبَ على كل من الآيتين أو النعمتين السابقتين - خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة، والسفن الجوّاري في البحر كالأعلام - عَقَّبَ على كلٍ منهما بالفناء والإهلاك ليشعر الناس بأن كل ما يملكون من أعراض هذه الدنيا عُرضة كلّ للذهاب فلا ثبات ولا استقرار لشيء إلا الصلة الوثيقة بالله. (188)

ومن هنا فالسياق ليس بسياقٍ منٍّ بقدر ما هو سياق تخويف وإشعار بالضعف والعجز وعدم القدرة فاكتفى بذكر نعمة التسيير والتسخير دون نعمة القدرة على الإنشاء والإيجاد.

فكيف - بالله - يجمع بين الإشعار بعجز الإنسان وضعفه: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (الشورى: ٣١)، وبين إلهامه القدرة وإيداعه فيهم القوة على الإنشاء، على نسق مغاير من سورة الرحمن والتي كان سياقها الامتنان عليهم بهذه النعم ومنها القدرة على الإنشاء والإيجاد.

إضافة إلى وجود اللام في "وله" وهي لام تدل على الملك، فكأنه يقول لهم: إن هذه السفن الجوّاري في البحر وعلى رغم أنكم أنتم من ينشئها ويصنعها إلا أنها لي وداخلة في ملكي، والله تعالى أعلم.

5- مقارنة بين الجنان الأربع:

قال تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۖ ﴿٤٦﴾ فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۚ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ۖ ﴿٤٨﴾ فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۚ ﴿٤٩﴾ فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۖ ﴿٥٠﴾ فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۚ ﴿٥١﴾ فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ رِجَالٌ ۖ ﴿٥٢﴾ فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۚ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۖ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ۖ ﴿٥٤﴾ فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۚ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْغُرَفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْفُسُ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ۖ ﴿٥٦﴾ فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۚ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ۚ ﴿٥٨﴾﴾ الرحمن: ٤٦ - ٥٨.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۖ ﴿٦٢﴾ فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۚ ﴿٦٣﴾ مُدْهَمَمَتَانِ ۖ ﴿٦٤﴾ فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۚ ﴿٦٥﴾ فِيهَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ ۖ ﴿٦٦﴾ فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۚ ﴿٦٧﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ ۖ ﴿٦٨﴾ وَرُمَّانٌ ۖ ﴿٦٩﴾ فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۚ ﴿٧٠﴾ فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۚ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ۖ ﴿٧٢﴾ فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۚ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْفُسُ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ۖ ﴿٧٤﴾ فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۚ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرِيٍّ حَسَانٍ ۖ ﴿٧٦﴾﴾ الرحمن: ٦٢ - ٧٦.

لقد ذكر أصحاب التفاسير أن هذه الجنان جميعها ضمن الجنة الكبيرة المعروفة ولكن اختصاصها بالذكر يوحي بعلو الرتبة وارتفاع الشأن، كما أن التفاوت بينها ملحوظ وظاهر كما سنتبين لاحقاً. (189)

وقد ربط بعض العلماء بين ذكر هاتين المترلتين لهذه الجنان وبين ما هو في سورة الواقعة، وهو أن أصحاب الجنة فريقان كبيران هما السابقون المقربون وأصحاب اليمين.

فالجنتان الأوليان هما لفريق ذي مرتبة عالية وقد يكون هو فريق السابقين المقربين المذكورين في سورة الواقعة.

ثم نرى جنتين أخريين من دون هاتين ونلمح أنهما لفريق يلي ذلك الفريق وقد يكون هو فريق أصحاب اليمين. (190)

فالجنتان الأوليان ذواتا أفنان أي أغصان وهو جمع فنن والمقصود أفنان عظيمة كثيرة الإبراق والإثمار بقرينة أن الأفنان لا تخلو عنها الجنان، وقد جاء التنكير في "أفنان" للتعظيم، وتخصيص ذكر الأفنان لأنها محل الإثمار والإبراق.

بينما في الجنتين الأخريين قال: مدهامتان، والدُّهْمَةُ لون السواد، ووصف الجنتين بالسواد مبالغة في شدة خضرة أشجارهما، حتى تكون بالتفاف أشجارهما وقوة خضرتيهما كالسوداوين، لأن الشجر إذا كان رياناً اشتدت خضرة أوراقه، حتى تقرب من السواد، ولعل في هذا الوصف إشعاراً بأن الغالب عليهما النبات المنبسط على وجه الأرض، كما أن في ذكر الأفنان سابقاً ما يوحي بالأشجار؛ إذ

189- الظلال، ج6، 3457.

190- الظلال، ج6، 3457، التحرير والتنوير، ج27، 252.

وصف الشجر عادة إنما يكون بالأغصان، ولا شك إن صح هذا القول وترجح؛
أن الجنة الكثيرة الظلال والثمار أعلى وأعلى من الجنة القليلة الظلال والثمار.

وقال في الأولين: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ (٥٠) الرحمن: ٥٠، ثم قال في الآخرين:

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَاجَتَانِ﴾ (٦٦) الرحمن: ٦٦، والجري يفوق النضج، إذ إن
النضج هو الرش وقد يكون قريباً من النضج بالحاء المهملة، وهو على كثرته
وتدفعه أقل من الجريان.

ثم وصف الأولين بقوله: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ (٥٢) الرحمن: ٥٢

ووصف الآخرين بقوله: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ (٦٨) الرحمن: ٦٨

واللفظ في الأول مسبوق بما يشير إلى التعميم والشمول والجمع، ويضيف إلى
ذلك "النوع" أي الجنس، ولا شك بأن هذا أشمل من الوصف الثاني، ولو كان
بالتنوين في "فاكهة" فهو تعميم ولكن دون ذلك التعميم الأول بلفظ كل.

ووصف الاتكاء على الفرش أعلى وأعظم من الاتكاء على الرفرف، فالرفرف هو
ما يطرح على ظهر الفرش للنوم عليه، وقيل هو الوسائد والمخاد، وكل هذا دون
الفرش الوثير ذي البطائن المتخذة من المخمل الكثيف.

وأما النساء ففي الأولين هن قاصرات الطرف أي يقصرن طرف الناظر إليهن فلا
ينظر إلى غيرهن لحسنهن وجمالهن وفتنتهن، كأنهن الياقوت والمرجان، أي بعد كل
هذا الحسن؛ ناضرات لامعات في صفاء الياقوت وحمرة المرجان.

وأما في الآخرين فهن: ﴿خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ (٧٠) الرحمن: ٧٠، أي خيرات الخلق

حسان الخلق، حور جميلات لكن ليس لهن بهاء كبهاء المشبهات بالياقوت

والمرجان، كما أنهن مقصورات في الخيام، وفي ذلك إيماء ببداوة، فهو نعيم بدوي، أو يمثل مطالب أهل البداوة، ولكنهن يشتركن مع زميلاتهن هناك بالصون والعفاف.

وفي الأوليين إضافة ليست مذكورة في الآخرين، وهي وصفه تعالى لثمارها: ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ۝٥٤﴾ الرحمن: ٥٤، أي ثمارها قريبة التناول لا تتعب في قطاف.

وفي كتب التفسير إشارات أخرى تدل على أن رتبة الآخرين أعلى من رتبة الأوليين، فيكون التأويل مغايراً لما ذكر هنا والله تعالى أعلم بمراده. (191)

6- قال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۖ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ۝٥٤﴾ الرحمن: ٥٤.

وقال أيضاً: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۖ﴾ الكهف: ٣١.

وقال: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ ۖ﴾ الطور: ٢٠.

وقال: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ۖ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ۖ﴾ الواقعة: ١٥-١٦.

وقال: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۖ﴾ الإنسان: ١٣.

وقال: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرٍ ۖ حِسَانٍ ۖ﴾ الرحمن: ٧٦.

191- روح المعاني، ج 15، 185-190، التحرير والتنوير، ج 27، 252-254، الظلال، ج 6، 3457-3458. بصائر ذوي التمييز، ج 5، 74.

فجاء الاتكاء على الأرائك مرتين: في سورتي الكهف والإنسان، وعلى السرر مرتين أيضاً: في سورتي الطور والواقعة، وعلى الفرش مرة في سورة الرحمن، وعلى الرفرف مرة أيضاً في سورة الرحمن.

وبعد النظر والتمعن في هذه الآيات وفي السياقات التي جاءت خلالها، يُلاحظ أن الاتكاء على الأرائك في سورتي الكهف والإنسان جاء خلوّاً من ذكر النساء، أو الإشارة إليهن، إذ إن في لفظ الأريكة معنى الجلوس والراحة في المحادثة والأكل دون الاستمتاع بالنساء.

وأما الاتكاء على السرر والفرش فقد جاءا مقترنين بالإشارة إلى النساء:

﴿مُتَكِّينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَّائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا

تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَصَصَاتُ الْغُرَفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾﴾

الرحمن: ٥٤ - ٥٦، وقال: ﴿مُتَكِّينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ

﴿٢٠﴾ الطور: ٢٠، وقال: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَكِّينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ

﴿١٦﴾ الواقعة: ١٥ - ١٦، إلى أن قال: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلِيِّ الْمَكُونِ

﴿٢٣﴾ الواقعة: ٢٢ - ٢٣.

ولكن لفظ السر الذي كان مقترنا بوصف: "مصفوفة" مرة، و"موضونة" مرة أخرى، وعلى رغم ذكر النساء المقترن معه والإشارة إليهن؛ إلا أنه كان منفصلاً عنهن، وكأن النساء نعمة مستقلة ليست من مكملات السرير، وذلك على العكس من لفظ الفرش الذي كان من صفتها وجود النساء فيها، حيث الضمير

في "فيهن" عائد إلى الفرش. ﴿مُتَكِّينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ

دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَيَأْيَءُ الْآلَاءِ رِيكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَصِيرَتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْنِ إِنْسٌ

قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ الرحمن: ٥٤ - ٥٦.

وأما الرفرف: فهو نوع من الفرش، أو ما يبسط عليها، أو هو الوسائد والمخادد

وفي هذا إحياء كما ذكر سابقا، إلى نعيم بدوي والله تعالى أعلم.

7- قال تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَصِيرَتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْنِ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾﴾ الرحمن:

٥٦.

وقال: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَتُ الطَّرْفِ عَيْنٌ ﴿٤٨﴾﴾ الصافات: ٤٨.

وقال: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَتُ الطَّرْفِ أَنْزَابٌ ﴿٥٢﴾﴾ ص: ٥٢.

والتمييز بين هذه الأوصاف يحتاج إلى دراسة عميقة ونظر متأن للسياقات

الواردة فيها كل من هذه الآيات، فلنستمع لقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ

﴿٤٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَكَهَهُمْ مَكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَى سُرُرٍ

مُنْقَبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيضَاءُ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا

غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَتُ الطَّرْفِ عَيْنٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ

مَكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ الصافات: ٤٠ - ٤٩.

وإلى قوله تعالى: ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُمْنَحَةٍ لَهُمْ

الْأَنْبُوبُ ﴿٥٠﴾ مُتَكِّينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾﴾ ﴿٥١﴾ وَعِنْدَهُمْ

قَصِرَتْ الطَّرْفُ الْأَرَبُ ﴿٥٢﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ

نَفَادٍ ﴿٥٤﴾ ص: ٤٩ - ٥٤.

هذه هي آيات السورتين والحديث في كلا الموضعين حديث عن المؤمنين الذين استحقوا هذا الجزاء العظيم لما قدموه من عمل في الحياة الدنيا في مقابل المجرمين والطاغين.

ولكن عدل الله ورحمته يقتضيان التفاوت بين أصناف المؤمنين كل حسب عمله وأدائه، فهناك المخلصين من عباد الله وهم أعلى رتبة وأعظم مقاما - كما ظهر لي - من المتقين، فكان للأوليين جنات النعيم أي جنان ما فيها إلا النعيم، إذ بالإضافة هنا للقصر، في مقابل جنات عدن للمتقين.

والفواكه بالجمع والتنكير للتعظيم والتكثير للمخلصين في مقابل الوصف بالكثرة للمتقين.

والطواف على المخلصين - بالبناء للمفعول - بكأس بيضاء لذيدة تحمل أجمل أوصاف الشراب التي تحقق لذة الشراب وتنفي عقابيله، فلا خمار ولا منع ولا انقطاع، في مقابل ذكر الشراب من غير وصف أو شرح للمتقين.

ثم ذكر التقابل على السرر أثناء الأكل والشرب وهو أتم للسرور وآنس من الوحدة والانفراد.

وفيها أخيرا وصف لقاصرات الطرف بأنهن عین، أي واسعات جميلات العيون، والتقييد بالجمال يدفع ما عسى أن يقال، في مقابل وصف العمر أو السن بأنه

متقارب بين بعضهن البعض، أو بينهن وبين أزواجهن، حيث ذكر وصفهن بأنهن أتراب، أي ذوات أعمار متقاربة. (192)

أما في سورة الرحمن فالشأن أعلى وأعظم - كما ظهر لي والله تعالى أعلم - فلم يكتف بوصف قاصرات الطرف بما اكتفى به سابقا في السورتين آنفتي الذكر وإنما شبههن بالياقوت والمرجان كما وصفهن بالطهر والعفاف من أي مس كان من إنس أو جن، وذكر الجن إنما كان لأن السورة جعلته محل الخطاب مع الإنس، فأراد أن يدفع أي توهم وأي ظن، وما هذا إلا لرفعة شأن الخائفين مقام ربهم.

8- قال تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠)﴾ الرحمن: ١٩ - ٢٠.

وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا (٥٣)﴾ الفرقان: ٥٣.

وقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِيرَ تَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢)﴾ فاطر: ١٢.

لقد كان الخطاب في سورة الفرقان موجهًا للرسول صلى الله عليه وسلم لتسليته وتعزيته عما تعرض له عليه الصلاة والسلام من تطاول على ذاته وعلى عقيدته التي يحملها ويدعو إليها، فأراد الله أن يوجه قلبه إلى ما في هذا الكون من مشاهد وأن يصل مشاعره بجولة في آفاقه الوسيعة ليفتح قلبه على كون يتضاءل معه كيد الكائدين وعداوة المجرمين.

ولهذا توسّع في ذكر هذه النعم ابتداء من مشهد الظل وكيف مدّه، ولو شاء لجعله ساكنا، وكيف كانت الشمس دليلا عليه بضوئها وحرارتها، وكذلك مشهد الليل الساتر والنوم الساكن والنهار المشرق الناشر، إلى نعمة الرياح المبشرة بالمطر وما يبيته من حياة، ثم - وبعد فاصل للتذكير بالقرآن وكيف أعرض المشركون عنه - يعود ثانية إلى التذكير بالنعم ومنها نعمة إرسال البحرين فهما يجريان ويلتقيان ولكنهما لا يختلطان ولا يمتزجان.

فالسّياق سياق توسع وتفصيل وسياحة في مجالي الكون بذكر النعم لأنها جاءت في مقام تسليّة النبي الكريم وتسريته عما لاقاه من اعتراض المعرضين وححد الكافرين.

وكذلك الأمر بالنسبة لسورة فاطر؛ فالمقام مقام تخفيف وتعزية لرسول الله عن كفر من كفر وإنكار من أنكر، حيث أمره الله تعالى أن يعرض عنهم وعن ترهاتهم: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (فاطر: ٨) فالمطلوب هو تفويض هذا الأمر لصاحبه العليم بما يصنعون، فمن شاء أن يؤمن فهذه أدلة الأيمان معروضه في صفحة الكون حيث لا خفاء فيها ولا غموض، ومن شاء أن يضل عن بينة وقد أخذته الحجة من كل جانب.

أما سورة الرحمن فهي - كما عرض سابقا - سياق امتنان بالتعداد وحشد لنعم الله تعالى على الإنسان، لا سياق سياحة في الكون وعرض لمشاهده، فاكتمى بما

ذكر من إرساله البحرين ودون بيان لنوعيهما فهما معروفان وأتبعهما لا يختلطان بقدرته وإرادته. (193)

المطلب الثاني: دراسة ألفاظ السورة

فيما يلي دراسة لبعض ألفاظ السورة الكريمة دراسة تفسيرية تدل بجلاء ووضوح على إعجاز اللفظة في موضعها، وبلاغتها في مكانها. (194)

1- حُسْبَان: في قوله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ (الرحمن: ٥)، والحسبان مصدر من حَسَبَ، بمعنى عدّ، مثل الغفران والشكران والكفران، أي بمعنى الحساب. (195)

وقد وردت هذه المادة على صيغ مختلفة مرات عديدة، فقد جاءت على صيغة الحساب: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ (الشعراء: ١١٣)، أي أجهرهم، وعلى صيغة الحسيب: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ (النساء: ٨٦)، أي حفيظاً، وجاءت فعلاً بمعنى الظن من الحسبان: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ (إبراهيم: ٤٢).

وقد وردت هذه المادة في القرآن الكريم على هذه الصيغة ثلاث مرات، فبالإضافة إلى ورودها في سورة الرحمن وردت في سورتي الأنعام والكهف، على النحو

193- الظلال، ج5، 2568-2572، 2928-2929، بتصرف واختصار.

194- كان المعيار المتبع في اختيار الألفاظ هو التقرير بقاعدة امتناع الترادف في القرآن، وأن كل لفظة في القرآن إنما جاءت في موضعها الذي لا تليق أخرى بأن تحل محله والله تعالى أعلم.

195- أبو عبيدة معمر بن المثنى، مجاز القرآن، ط2، 1981، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج2، 242.

التالي: ﴿ فَأَلْقُ الْأَصْبَاحَ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ

الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ الأنعام: ٩٦.

﴿ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ

فَنُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ الكهف: ٤٠.

أما المعنى في سورتي الرحمن والأنعام فهو واحد وهو: التوازن والتناسق في الكون، والضبط والحساب لحركة أي جرم، ودقة التقدير في الخلق حجما وحركة، دون أي اختلال أو اضطراب أو خطأ، وهذا معنى المصدر، ويحتمل أيضا: التقدير في بروج الشمس والقمر ومنازلهما بحيث تنتظم بذلك أمور الكائنات وتختلف الفصول والأوقات وتعلم السنون والحساب على معنى قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِئَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ يونس: ٥

وفي سورة الكهف جاء الحسبان بمعنى: العذاب أو النار وهذا مروي عن ابن عباس، وقيل هو الصاعقة أو سيل مدمر يقتل أشجارها ويهلكها، وقيل: اسم للجراد، قيل أمور أخرى.

ولكن المحققين على أنهما هنا مصدر بمعنى العذاب المقدر من الله كما في الآيتين السابقتين، ولكن إطلاق المصدر على الحكم إنما هو من باب المجاز، أو تقدير المضاف أي عذاب حساب، وهو حساب ما كسبت يدها.

وكلها معانٍ جائزة هنا وصحيحة، ولكن الراجح والله أعلم هو المعنى الأخير.

والإخبار عن الشمس والقمر بالمصدر إسناد مجازي، والإسناد المجازي يعطي المسند إليه فاعلية محققة يستغني بها عن ذكر الفاعل الأصلي، بمعنى حاسبين والحاسب هم الناس بسبب الشمس والقمر. (196)

2- النجم: في قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ (٦) الرحمن: ٦، والنجم هو الكوكب الطالع، وجمعه نجوم، وأنجم، ويكون مرة اسما ومرة مصدرا، فالنجوم كالقلوب والجيوب اسم، والنجوم كالطلوع والغروب مصدر، ومنه شبه به طلوع النبات والرأي.

وقد ورد في كتاب الله تعالى بمعنى النجم في السماء مرات عديدة منها: ﴿وَعَلَّمَتِ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (١٦) النحل: ١٦، ﴿فَنَظَرَنظَرَةً فِي النُّجُومِ﴾ (٨٨) الصافات: ٨٨، ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ (١) النجم: ١، ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾ (٧٥) الواقعة: ٧٥.

كلها تشير إلى معنى النجم في السماء.

وقد وقع الاختلاف في سورة الرحمن: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ (٦) الرحمن: ٦، وغالب العلماء على تفسيرها بالنبات الذي لا ساق له، وسمي نجما لأنه نجم أي ظهر وطلع، وفي ذلك نظر إلى معناه اللغوي، وهو مناسب للفظ الشجر الوارد بعده.

196- روح المعاني، ج 15، 153، ج 9، 405، ابن عطية، 14، 180، الظلال، ج 6، 3447-3448، بصائر ذوي التمييز، ج 2، 460-462، المفردات، 232-233، التحرير والتنوير، ج 6، 233-234، ج 15، 70، الكشف، ج 2، 695، الإعجاز البياني، بنت الشاطي، 243.

وكذلك هو مناسب للجملة الواردة قبله، حيث ذكر فيها الشمس والقمر، وهما سماويان، فناسب ذلك النجم والشجر وهما أرضيان. (197)

3-العصف: في قوله تعالى: ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ۝١٢﴾ الرحمن: ١٢، وهو الورق والقصب الذي يكون في سنابل بعض النبات فيؤكل الحب أو يؤخذ للنفع والفائدة، فيبقى الورق والقصب، فيصير تبنا، وسمي بالعصف لأن الريح تعصف به أي تحركه.

وفي القرآن الكريم: ﴿جَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ الفيل: ٥، أي كزرع أكل حبه وبقي تبنه.

﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ يونس: ٢٢، أي ريح تكسر الشيء فتجعله كعصف، وهذا المعنى الأخير يعكس التشبيه الوارد في الأول.

فهل العصف هو التحريك بشدة؟ أم هو ما تبقى من النبات بعد الانتفاع به من حب وورق؟

والراجح هو الثاني؛ إذ إن الريح عندما تحرك الأشياء إنما يتبقى منها ما يبقى من النبات بعد الانتفاع به، فالعرب تقول: العصيفة وهي الورق المجتمع الذي فيه السنابل. (198)

4-الريحان: في قوله تعالى: ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ۝١٢﴾ الرحمن: ١٢، وهو ما له رائحة ذكية من الأزهار والحشائش، وهو فعالان من الرائحة.

197- بصائر ذوي التمييز، ج5، 20، المفردات، 791-792، الكشف، ج4، 433، 4، الحرر الوجيز، ج14، 180، أبو عبيدة، مجاز القرآن، ج2، 242.

198- بصائر ذوي التمييز، ج3، 72، المفردات، 569، التحرير والتنوير، ج27، 226-227، مجاز القرآن، ج2، 242.

ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ﴾ (٨٩) الواقعة: ٨٩، فهو في راحة ونعيم وريح طيبة ذكية، وقد ورد في أثر: أن روح المؤمن تخرج طيبة، وقيل هو الرزق. (199)

5- البرزخ: في قوله تعالى: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ (٢٠) الرحمن: ٢٠، وهو الحاجز والحد بين الشيتين، وذكرت في القرآن بمعناها اللغوي إضافة إلى ما سبق في سورة الرحمن مرة أخرى: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١٠٠) المؤمنون: ١٠٠، أي لا هم من أهل الدنيا ولا هم من أهل الآخرة إنما هم بين بين، أي في الحاجز الذي يفصل بين الدنيا والآخرة، أي ما بين الموت إلى يوم القيامة.

وفي سورة الرحمن: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ (١٩) ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ (٢٠) الرحمن: ١٩ - ٢٠، بمعنى: أرسل البحرين وتركهما يلتقيان ولكنهما لا يبغيان ولا يتجاوز كل منهما حده المقدر ووظيفته المقسومة، وبينهما برزخ من طبيعتهما من صنع الله. (200)

6- سنفرغ، في قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ (٣١) الرحمن: ٣١، والفراغ هو الخلو بعد امتلاء يكون ماديا حسيا مثل فرغ الإناء أي خلا بعد امتلاء، ويكون معنويا مثل فرغ البال أي خلا مما كان يشغله.

وفي القرآن الكريم: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرَجًا﴾ (١٠) القصص: ١٠، ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا﴾ البقرة: ٢٥٠.

199- المفردات، 369-370، بصائر ذوي التمييز، ج3، 104، التحرير والتنوير، ج27، 227، الكشف، ج4، 434.

200- بصائر ذوي التمييز، ج2، 238، المفردات، 118، الظلال، ج6، 3452، مجاز القرآن، ج2، 243.

وقال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ (٧) الشرح: ٧، أي فراغ اليسر بعد العسر، والراحة بعد الشدة والكرب.

وفي سورة الرحمن، بمعنى فرغ للأمر أي توفر له وأخلى نفسه من كل ما عداه، والله تعالى لا يشغله شيء عن شيء، فيكون بمعنى القصد والإقبال على أمور الثقيلين، وفي ذلك إشارة إلى وعيد. (201)

7- الثَقْلَان: تثنية ثَقْل، وهو المتاع وكل شيء مصون، وهذا المثنى اسم مفرد لمجموع الإنس والجن.

والتَّحْمِلُ هو الإنسان لأنه محمول على الأرض فهو كالثقل على الدابة وإطلاقه على الأنس والجن من باب التغليب، وهو لم يطلق على مجموع النوعين قبل القرآن فهو من إعلام الأجناس بالغلبة.

وليس في القرآن هذا المعنى إلا في هذه الآية، أما استعماله كمادة في القرآن فهو

كثير، منه: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ (٤٠) الطور: ٤٠، في معنى أثقله

العُرم والوزر، ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ

الْأَنْفُسِ﴾ (٧) النحل: ٧، أي أحمالكم الثقيلة، ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ (٢) (٢)

الزلزلة: ٢، أي ما أودع فيها وحملته جيلا بعد جيل من أجساد ومعادن وأمور أخرى. (202)

201- التفسير البياني، بنت الشاطي، ج1، 72-73، المفردات، 632، البصائر، ج4، 185، التحرير والتنوير، ج27، 230، المحرر الوجيز، ج14، 200، مجاز القرآن، ج2، 244.

202- التحرير والتنوير، ج27، 240، المفردات، 174، البصائر، ج2، 334-335، التفسير البياني، ج1، 84-85.

8- أقطار: ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ الرحمن: ٣٣، جمع القطر هو الجانب،

وجاءت على هذه الصيغة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا

الأحزاب: ١٤، أي من نواحي المدينة كلها، وجاء في القرآن على صيغ أخرى

تحمل معاني مختلفة كما في قوله تعالى: ﴿وَأَسْلَمْنَا لَهُ ^ص عَيْنَ الْقَطْرِ ^ص﴾ سبأ: ١٢، أي

النحاس المذاب. (203)

9- شواظ: في قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴿٣٥﴾

الرحمن: ٣٥، والشواظ هو اللهب الذي لا دخان فيه لأنه قد كمل اشتعاله وذلك

أشد إحراقاً. (204)

10- نحاس: في الآية السابقة، وهو الدخان الذي لا لهب معه، وذلك تشبيه في اللون

بالنحاس وهو الصُّفْرُ أو القِطْرُ، ومنه النحاس ضد السعد، قال تعالى: ﴿فَارْسَلْنَا

عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ﴾ فصلت: ١٦، أي مشؤومات، وقيل: أصل

النحاس أن يحمر الأفق فيصير كالنحاس، أي لهب بلا دخان فصار مثلاً للشؤم.

(205)

11- وردة: في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾

الرحمن: ٣٧، يقال لنور كل شجر: وَرْدٌ، ويقال: وَرْدُ الشجر: أخرج نوره، وشبه

203- التحرير والتنوير، ج 27، 241، ج 21، 210، المفردات، 677، البصائر، ج 4، 280، مجاز القرآن، ج 2، 244.

204- التحرير والتنوير، ج 27، 242، المفردات، 470، مجاز القرآن، ج 2، 244

205- التحرير والتنوير، ج 27، 242، المفردات، 794، المحرر الوجيز، ج 14، 205، مجاز القرآن، ج 2، 244.

به لون الفرس، فقليل: فرس ورْد، وقيل في صفة السماء إذا احمرّت احمرارا كالورد أمانة للقيامة.

وليس في القرآن سواها على هذه الصيغة.

وجاء على ذات المادة في صيغ أخرى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ القصص: ٢٣، أي قصد الماء، والورد الماء المرشح للورود، واستعملت على سبيل الفطاعة والتهكم في قوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ هود: ٩٨، ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا﴾ مريم: ٨٦، والوارد: الذي يتقدم القوم فيسقيهم لهم: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾ يوسف: ١٩، أي ساقهم من الماء المورود، والوريد: عرق يتصل بالقلب: ﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ق: ١٦، كناية عن الروح. (206)

12- الدهان: في الآية السابقة، وجاء أيضا في قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ

سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدَّهْنِ وَصَبِغٍ لِّلْأَكْلَيْنِ﴾ المؤمنون: ٢٠، الدهن بضم الدال:

اسم لما يدهن به: أي يطلى به شيء وهو هنا زيت الزيتون.

وأما في سورة الرحمن: فتعترى السماء يوم القيامة ألوان وذوب وتمييع من شدة الهول، فهو تشبيه للسماء في التموج والاضطراب. (207)

206- التحرير والتنوير، ج27، 243، المفردات، 865، مجاز القرآن، ج2، 245.

207- التحرير والتنوير، ج27، 243، ج18، 32، المحرر الوجيز، ج14، 207، المفردات، 320، مجاز القرآن، ج2، 243.

13- مرج: في قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩﴾ الرحمن: ١٩، أصل المرج هو

الخلط، ومنه قوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾ ق: ٥، والمارج المختلط من

النار كما مر سابقا في قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥﴾

الرحمن: ١٥، والمرج أيضا هو الإرسال، يقال: مرج الدابة أرسلها للرعي، ومنه

قوله في سورة الرحمن الآية السابقة، وفي سورة الفرقان: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ

الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ۝٥٣﴾

الفرقان: ٥٣. (208)

14- آن: في قوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيرٍ ؕ إِنِ ۝٤٤﴾ الرحمن: ٤٤، وهي من:

أنى الشيء، وآن: أي قرب إناه، وإلنا: الوقت والساعة، ومنه قوله تعالى: ﴿

أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ؕ أَنَاءَ أَلَيْلٍ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ۝٩﴾

الزمر: ٩، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا

نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ۝١٦﴾ الحديد: ١٦، أي لم يحن، وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا

نَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ

الأحزاب: ٥٣، منتظرين ومرتبين نضجه، وقوله تعالى: ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ ؕ إِنَّيْ ۝٥٣﴾

الغاشية: ٥، أي بلغ إناءه من شدة الحر، أي بلغ وقت شدة الحرارة، وهو ذات المعنى في سورة الرحمن. (209)

15- إستبرق: في قوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ الرحمن: ٥٤، ورد هذا اللفظ ثلاث مرات أخرى سوى التي في سورة الرحمن.

في قوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ الكهف: ٣١.

وفي قوله: ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّقِيلِينَ﴾ الدخان: ٥٣، وفي قوله: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ الإنسان: ٢١.

والإستبرق هو: الدياج الغليظ والمخمل الكثيف المنسوج بخيوط الذهب يُلبس فوق الثياب المباشرة للجلد. وقد اختلف في أصل اللفظ بين فارسي أو سرياني أو رومي، ولكن اتفق على أنه لفظ معرب ولولا ذلك لم يذكر في القرآن، وجمع على أبارق وصُغِرَ على أبيرق. (210)

16- جنى: في قوله تعالى: ﴿وَجَنَّ الْجَنَّةِ دَانٍ﴾ الرحمن: ٥٤، من جنيت الثمرة واجتنيته، والجنة والمجنى: المحتنى من الثمر، ويستعمل فيما كان غضا من الثمر،

209- التحرير والتنوير، ج27، 245، ج21، 306، المفردات، 96، مجاز القرآن، ج2، 245.

210- التحرير والتنوير، ج15، 31، الكشف، ج4، 441.

قال تعالى: ﴿وَهَزَىٰ إِلَيْكَ يَمِّدُكَ النَّخْلَةَ تَسْقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا﴾ ﴿٢٥﴾ مريم: ٢٥
أي مجتني كناية عن قرب سقوطه. (211)

17- دان: في الآية السابقة، وهو من الدنو وهو القرب، ويستعمل في المكان والزمان

والمترلة: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِمَّنْ طَلَعَهَا فَنَوَانُ دَانِيَةً﴾ ﴿٩٩﴾ الأنعام: ٩٩، ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى

﴿٨﴾ النجم: ٨، ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ ﴿٨﴾ النجم: ٨، ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ

عَلَىٰ وَجْهِهَا﴾ ﴿١٠٨﴾ المائدة: ١٠٨، ﴿وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ﴾ ﴿٧﴾ المجادلة: ٧، كناية

عن الأصغر والأقل، ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ ﴿٤٦﴾

البقرة: ٦١، كناية عن الأرذل، ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ ﴿١١﴾ الحج: ١١، كناية عن

الأول، ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَىٰ﴾ ﴿٤٢﴾ الأنفال: ٤٢، كناية
عن الأقرب. (212)

18- الطمث: في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ نَفْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ ﴿٥٦﴾ الرحمن: ٥٦،

والطمث هو الدنس، وهو أيضا دم الحيض، والافتضاض. ومعنى الآية: أي لم

يفتضهن أحد، ومنه استعير قولهم: ما طمث هذه الروضة أحد قبلنا: أي ما

افتضها أحد ولا دخلها بشر. (213)

211- التحرير والتنوير، ج16، 27، المفردات، 208، مجاز القرآن، ج2، 245.

212- المفردات، 318-319.

213- المفردات، 524، البصائر، ج3، 514، مجاز القرآن، ج2، 245.

19- خيرات: في قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنٌ﴾ (٧٠) الرحمن: ٧٠، أصله خيرات

ثم خففت، يقال: رجل خير، وامرأة خيرة، والمراد: المختارات فلا رذل فيهن.
(214)

20- مقصورات: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ (٧٢) الرحمن: ٧٢، أي نساء قصرن

على أزواجهن، وهو من صفات الترف في نساء الدنيا فهن لا يحتجن إلى مغادرة
بيوتهن لخدمة أو ورد أو اقتطاف ثمار، أي هن مخدومات مكرّمات، وقيل:
مجموعات في قصر. (215)

21- خضر: في قوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرِيِّ حَسَانٍ﴾ (٧٦)

الرحمن: ٧٦، وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُنْدُسٍ
وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ (الكهف: ٣١)، وفي قوله: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾
الإنسان: ٢١، وخضر: جمع أخضر، والخضرة: أحد الألوان وهو إلى السواد أقرب،
وفيه سرور للناظر، وكانت الثياب المتصفة بالخضرة عزيزة، واختص الملوك
والكبراء بها فيما مضى. (216)

214- المفردات، 301.

215- المفردات، 673، التحرير والتنوير، ج 27، 254.

216- المفردات، 285، التحرير والتنوير، ج 27، 254-255.

22- عبقرى: في الآية السابقة، نسبة إلى عبقر، وهو موضع للجن ينسب إليه كل نادر من إنسان وحيوان وثوب، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في عمر رضي الله عنه: "لم أر عبقرىا يفري فريه" فهو إذاً ضرب بديع من البسط، كأنه لحسنه وروعته من صنع عبقر، وفي ذلك تقريب لوصفه من أذهان العرب.⁽²¹⁷⁾

217- المفردات، 544، الظلال، ج6، 3458، مجاز القرآن، ج2، 246.

المبحث الثاني: التقديم والتأخير والذكر والحذف

أسلوب القرآن أسلوب عجب، وأدائه للكلام أداء فذ؛ فقد يقدم من الكلام ما حقه التأخير، وقد يؤخر منه ما حقه التقديم، كذلك فإنه قد يحذف منه ما حقه الذكر، وقد يذكر منه ما حقه الحذف؛ وكل ذلك لسرٍّ بديع، أو لغرض خفي، وفي هذا المبحث استجلاء لعدد من ذلك في السورة الكريمة، والله الموفق.

المطلب الأول: التقديم والتأخير

1- قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۙ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۚ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۖ عَلَّمَهُ

الْبَيَانَ ۚ﴾ (٤) الرحمن: ١ - ٤، ما بعد الرحمن كلها أخبار عنه جيء بها على نمط التعديد غير متعاطفة.

وجيء هذه الجملة على هذه الصورة من تقديم للمسند إليه وتأخير للمسند؛ إنما أريد به شيان اثنان؛ الأول: تشويق جميع السامعين إلى الخبر الذي يخبر به؛ إذ كان المشركون لا يألفون هذا الاسم قال تعالى: ﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ۚ﴾ الفرقان: ٦٠، فهم إذا سمعوا هذه الفاتحة ترقبوا ما سيرد من الخبر عنه، والمؤمنون إذا طرق أسماعهم هذا الاسم استشرفوا لما سيرد من الخبر المناسب لوصفه هذا مما هم متشوقون إليه من آثار رحمته. والثاني: لإفادة التخصيص، أي هو الرحمن الذي علم القرآن لا بشر علمه، وهو الذي خلق الإنسان لا غيره، وهو معلم الإنسان البيان لا سواه، بالإضافة إلى ما يفيد التقديم من تأكيد، وفي ذلك براعة استهلال أيضا. (218)

218- التحرير والتنوير، ج27، 217، روح المعاني، ج15، 151.

2- وقدم سبحانه وتعالى تعليم القرآن على خلق الإنسان؛ على رغم أن الإنسان هو محل وقوع النعم، وعليه مدار الخلق قائم.

وإنما قدم القرآن وتعليمه لأنه أعظم ولأنه أراد أن يشير من خلال ذلك إلى الغاية من خلق الإنسان و هي تعلم القرآن والعمل به، والغاية متقدمة على ذي الغاية ذهنا، وإن كان الأمر بالعكس خارجا.

ولأن به صلاح الناس في الدنيا وبتابعهم إياه يحصل لهم الفوز في الآخرة. (219)

3- وقدم خلق الإنسان على تعليمه البيان لأن البيان خصيصة في الإنسان، بما يستطيع فهم القرآن والعمل به، ومن غيرها يفقد إمكانية استخلافه في الأرض. (220)

4- وأخر خلق السموات والأرض عن خلق الإنسان على رغم أن خلقهما أعظم

من خلقه: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ

أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٥٧ غافر: ٥٧ ، لما ذكر سابقا من أن

الخلق مداره الإنسان والغاية من خلقه العبادة، وهو محل التكليف، وقد

سخرت السموات والأرض وما بينهما للإنسان للانتفاع والاستفادة: ﴿أَلَمْ

تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً

وَبَاطِنَةً﴾ لقمان: ٢٠. (221)

219- روح المعاني، ج15، 152، التحرير والتنوير، ج27، 218.

220- التحرير والتنوير، ج27، 219، روح المعاني ج15، 152.

221- التحرير والتنوير، ج27، 219.

5- قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ (٦) الرحمن: ٦، قدم المسند إليه

على المسند لتكون على صورة الجملة السابقة التي عطف عليها هذه: ﴿

الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ (٥) الرحمن: ٥، ولما في هذا التقديم والتأخير من تخصيص سجود هذين المخلوقين لله تعالى لا لغيره. (222)

6- قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ (٧) الرحمن: ٧، آخر الفعل الناصب على الرغم

من أن الجملة فعلية، وقدم السماء زيادة في الاهتمام بخلقها لما في ذلك من عظيم نعمه على الإنسان، وخاصة أن السورة جاءت على نمط تعداد النعم والآلاء، فتقدم السماء زيادة للاهتمام بها. (223)

7- قال تعالى: ﴿فِيهَا فَنَكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ (١١) الرحمن: ١١، تقديم

الجار والمجرور يفيد الاهتمام والتركيز والتأكيد، والقول فيه كالقول في تقديم

الأرض على فعلها الناصب في قوله: ﴿وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ (١٠) الرحمن: ١٠، كما تقدم أيضا في الآية السابقة. (224)

8- قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ (١٤) وَخَلَقَ

الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ (١٥) الرحمن: ١٤ - ١٥، تقديم خلق الإنسان

على خلق الجان فيه إشارتان: حيث بدأت السورة بالحديث عن الإنسان

وتعليمه البيان، كذلك فيها إشارة إلى ما سبق من تفضيل الله تعالى للإنسان

222- التحرير والتنوير، ج 27، 221.

223- التحرير والتنوير، ج 27، 222.

224- التحرير والتنوير، ج 27، 226.

على الجن، حيث أمر الجن بالسجود للإنسان: ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ

كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

الحجر: ٣٠-٣١، وما ينطوي في ذلك على تقديم مصالح الإنسان على مصالح الجن، ومن استحقاقه لعمارة الأرض دون الجن. (225)

9- وفي قوله تعالى: ﴿ يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسُ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ الرحمن: ٣٣،

تقديم للجن على الإنس، فالآية جاءت على قاعدة خرق الناموس الكوني، وجاءت للتحدي والاستفزاز، والمعلوم أن الجن أقدر من الإنس على الإتيان بالخوارق والمعجزات وما لا قبل للإنسان به ولذلك ابتدأ الخطاب بهم. (226)

10- وقال أيضا: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾ الرحمن: ٣٩،

قدم الإنس على الجن لأن الإنس هم المكلفون في الدنيا، وعليهم يقع خطاب التكليف بالإجماع، وما وقع بين العلماء من خلاف حول تكليف الجن من عدمه كاف للقول بأن الإنسان هو غاية الخلق كما ورد في بداية السورة:

﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ ﴾ الرحمن:

٢ - ٤، إذاً فالمسؤولية واقعة عليه ضمن التكليف الذي حمّله الإنسان دون

غيره من المخلوقات: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ

225- التحرير والتنوير، ج27، 229-230.

226- روح المعاني، ج15، 171.

فَأَبَيْنَا أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَا مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَنُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٢٢٧﴾
الأحزاب: ٧٢ (227)

11- قال تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿٤٦﴾ فَإِنِّي ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾

ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَإِنِّي ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَإِنِّي ءَالَاءِ

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾ الرحمن: ٤٦ - ٥٢،

آخر ذكر الفاكهة بعد ذكر العينين الجاريتين، على الرغم من أنها أقرب إلى ذكر الأفنان؛ حيث إن الأغصان حاملة الثمار والفاكهة، أي أنه فصل بين ذكر الأفنان وذكر الفاكهة بذكر العينين الجاريتين، ولذلك سبب طريف وفيه دليل على إعجاز هذا الكتاب العزيز، فالأفنان تحتاج إلى ري وسقي بالماء لتنبت الزهر والثمر والفاكهة والله تعالى أعلم.

12- قال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾

فَإِنِّي ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْظَّرْفِ لَمْ يَطْمِئُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ

وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَإِنِّي ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَانَهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾

الرحمن: ٥٤ - ٥٨، تقدم الاتكاء على ذكر النساء، وقال تعالى: ﴿فِيهِنَّ

خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَإِنِّي ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ

﴿٧٢﴾ فَإِنِّي ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِئُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾﴾

فَيَايَءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَكِبِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾

الرحمن: ٧٥ - ٧٦، فأخّر الاتكاء عن ذكر النساء.

وذلك لأنه في الجنتين الأوليين ذكر الخوف: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾

الرحمن: ٤٦، فأراد أن يشعر أهل الجنتين بالأمن والاطمئنان أولا فقدم ما فيه

إشعار بالطمأنينة والراحة، وهو الاتكاء فإنه من شأن الآمنين، وفي الجنتين

الأخريين لم يذكر الخوف فلا يستدعي ذلك ذكر ما يشعر بالأمن، إذ هو

متوفر وموجود، ولكنه قدم النساء إذ هي نعمة للمطمئن الآمن. (228)

13- قال تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَصْرَتٌ أَلْطَرَفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾﴾

الرحمن: ٥٦، فذكر الجار والمجرور العائد على الفرش، وأخر نعمة الاستئناس

بالنساء عما في الجنة من الأفنان والعيون والفواكه؛ ليكون ذكر الفرش

مناسبا للانتقال إلى الأوانس من الحور في تلك الفرش، وهو قريب مما ذكر

آنفا. (229)

14- قال تعالى: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ الرحمن: ٦٨، فقدم الفاكهة

على النخل والرمان، وهما منها؛ وذلك لاختصاصهما وبيان فضلتهما،

كأنهما لما لهما من المزية جنسان آخران، كقوله تعالى: ﴿وَجِبْرِيلُ

228- روح المعاني، ج15، 193.

229- التحرير والتنوير، ج27، 250.

وَمِكَدَل ﴿البقرة: ٩٨﴾، أو لأنَّ النخلَ ثمرُهُ فاكهة وطعام، والرمَانُ فاكهةٌ ودواء فلم يخلصا للتفكُّه. (230)

المطلب الثاني: الذكر والحذف

1- قال تعالى: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾

الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ الرحمن: ٢ - ٥، حذف فيها العاطف، لأنها جاءت على نمط التعديد وسنن التهديد في مقام الامتنان والتوقيف على الحقائق والتبكيك للخصم في إنكارهم لبعضها، وإعراضهم من البعض الآخر.

فتكون كل جملة واحدة من الجمل مستقلة في تقرير الذين أنكروا الرحمن وآلاءه، كما ييكت منكر أيادي المنعم عليه من الناس بتعديدها عليه، في قولك: زيد أغناك بعد فقر، أعزك بعد ذل، كثرَك بعد قلة، فعل بك ما لم يفعلهُ أحد بأحد، فما تنكر من إحسانه؟

وفيها كذلك إشارة إلى أن كل واحدة من هذه الجمل تتضمن نعمة مستقلة تقتضي الشكر وقد قصرُوا في أدائه، ولو عطفت مع شدة اتصاها وتناسبها ربما تُوهم أن الكل نعمة واحدة. (231)

230- الكشف، ج4، 442.

231- الكشف، ج4، 433، التحرير والتنوير، ج27، 217، روح المعاني، ج15، 154.

2- وفي قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ ٦ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ

الْمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا

تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ٩ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ١٠ الرحمن: ٦ - ١٠،

ذكر العاطف، وذلك ردُّ للكلام إلى منهاجه بعد التبكيت في وصل ما يجب وصله للتناسب والتقارب بالعاطف.

والتناسب والتقارب واضحان في ذلك أشد الوضوح.

فالشمس والقمر سماويان والنجم والشجر أرضيان، والسماء والأرض لا تزالان قريبتين، وجري الشمس والقمر بحسبان من جنس الانقياد لأمر الله فهو مناسب لسجود النجم والشجر، وكذلك بين رفع السماء ووضع الأرض.

وكذلك فالأخبار الواردة بعد حروف العطف لم يقصد بها التعداد إذ ليس فيها تعريض بتوبيخ المشركين، فالإخبار بسجود النجم والشجر أريد به الإيقاظ إلى ما في هذا من الدلالة على عظيم القدرة دلالة رمزية، ولما اقتضى المقام جمع النظائر من المزاوجات بعد ذكر الشمس والقمر؛ كان ذلك مقتضيا سلوك طريقة الوصل بالعطف بجامع التضاد، كقولك بعدما ذكرت في المثال السابق: فعل بك ما لم يفعل بأحد، دانت له أقرانك، وأطاعته إخوانك، وبسط نواله فيمن تحت ملكته، ولم يخرج أحد من حيطة عدله ونصفته.

وفيه أيضا تنبيه على نعمه سبحانه لا تحصى، فليكتف بتعديد أجلها رتبة؛ لغرض التبكيت. (232)

3- قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۖ﴾ (٧) ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ

﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ الرحمن: ٧ - ٩،

ذكر الميزان ثلاث مرات، ولم يستغن بالضمير عن ذكر اللفظ، وذلك لإعلام العباد بما به قوام أحوالهم واستقامة أديانهم من إجراء أمورهم على العدل

الذي أمر به سبحانه في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ

أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ

كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ النساء: ٥٨، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا

قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا

تَعْدِلُوا ۖ أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ المائدة: ٨، وقد تكرر في الكتاب

العزير الوصية بالوفاء في الكيل والوزن: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا

بِالْقِسْطِ ۚ الْمُسْتَقِيمَ ۚ﴾ (٣٥) ﴿الْإِسْرَاءِ: ٣٥، ودم

سبحانه من بحس فيهما، وجعل جزاءه الويل والهلاك، فقال: ﴿وَيْلٌ

لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ

وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِّيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾﴾

المطففين: ١ - ٥، وأعلمنا سبحانه بوزن أعمال العباد يوم القيامة: ﴿وَنَضَعُ

الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ

حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ الأنبياء: ٤٧، لذلك

كله أكد سبحانه الأمر بذلك وأخبر بوضعه للخلق يوم القيامة، ليمثلوا أمره، ففيه إشارة جلية إلى مراعاة العدل في جميع ما يتحرره الإنسان من الأفعال والأقوال.

وفي التكرار أيضا تشديد للتوصية وتأکید للأمر باستعماله والحث عليه. (233)

4- قال تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ الرحمن: ٢٧، وقال:

﴿نَبْرَكَ أَنتُمْ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ الرحمن: ٧٨.

جاءت الأولى بعد ذكر مشهد الانقلاب الكوني ونهاية الحياة الدنيا وفناء من كان على الأرض فناء تاما، فناسب ذلك ذكر البقاء، وعبر بالوجه عن الذات من باب الكناية لأنها أبلغ من التصريح كما هو مقرر في علم المعاني. واختتم السورة باسمه الكريم كما ابتدأها به، وعندما أفاض في السورة بذكر آلائه ونعمه سبحانه ناسب أن تختتم بالبركة وكثرة الخيرات.

وقد أشعر الجر بـ "ذي" بأن التعبير عن الذات بالوجه أقوى دلالة من التعبير عنه بالاسم. (234)

233- الغرناطي، أحمد بن الزبير، ملاك التأويل القاطع بذی الإلحاد والتعطيل في توجيه التشابه اللفظ من آي التنزيل، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1983، بيروت، ج2، 1056-1057، الكشف، ج4، 434، التحرير والتنوير، ج27، 225، روح المعاني، ج15، 156.

234- روح المعاني، ج15، 166، 194، التحرير والتنوير، ج27، 236، 257.

المبحث الثالث: التصوير الفني

التصوير الفني هو جمال العرض وتنسيق الأداء وبراعة الإخراج.

والتصوير الفني كما عناه سيد قطب رحمه الله في كتابه التصوير الفني في القرآن هو التعبير عن المعنى الذهني والحالة النفسية والحادث المحسوس والمشهد المنظور والنموذج الإنساني والطبيعة البشرية كل ذلك بالصورة المحسة المتخيلة ثم منحها الحياة الشاخصة والحركة المتجددة.

فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية فأما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر فيردها شاخصة حاضرة فيها الحياة وفيها الحركة.

وهو تصوير باللون وتصور بالحركة وتصور بالتخييل كما أنه تصوير بالنغمة تقوم مقام اللون في التمثيل وكثيراً ما يشترك الوصف والحوار وجرس الكلمات ونغم العبارات

وموسيقى السياق في إبراز صورة من الصور تتمثلها العين والأذن والحس والخيال والفكر والوجدان.

وهو تصوير حي منتزع من عالم الأحياء لا ألوان مجردة وخطوط جامدة، تصوير تقاس الأبعاد فيه والمسافات بالمشاعر والوجدانات؛ فالمعاني ترسم وهي تتفاعل في نفوس آدمية حية أو في مشاهد من الطبيعة تُخلع عليها الحياة. (235)

ومن هذا التصوير البديع في السورة الكريمة:

1- قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ (٦) الرحمن: ٦، والسجود هو وضع

الوجه على الأرض بقصد التعظيم، ويطلق على الوقوع على الأرض مجازاً أو استعارة كقولهم: نخلة ساجدة إذا أمالها حملها، فسجود نجوم السماء نزولها إلى جهات غروبها، وسجود نجم الأرض التصاقه بالتراب كالساجد، وسجود الشجر تطأطؤه لهبوب الرياح، ودنو أغصانه للجنانين لثماره، والخابطين لورقه.

وشبه ارتسام ظلالها على الأرض بالسجود كما قال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ (الرعد: ١٥)، وفي

كل ذلك دلالة على أن الله موجدُها ومسخرُها، وفي هذه الصورة تتضح حقيقة اتصال الكون بخالقه واتجاهه إلى مبدعه مما يمنح القلب البشري متاعاً عجيباً وهو

235- التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، 36-38. انظر أيضاً: سيد قطب، كتب وشخصيات، ط3، 1983م، دار الشروق، مصر، 31-28.

يشعر بكل ما حوله حيا، يعاطفه ويتجه معه إلى خالقه، وهو في وقفته بين أرواح الأشياء كلها وهي تدب فيها جميعا وتحيلها إخوانا له ورفقاء.
كل هذه الدلالات توحىها صورة ذات أبعاد وآماد وآفاق. (236)

2- قال تعالى: ﴿ فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ (٣٧) فَإِنِّي ءَالَاءِ رَبِّكُمْ

تُكَذِّبَانِ ﴿ ٣٨ ﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿ ٣٩ ﴾ فَإِنِّي ءَالَاءِ رَبِّكُمْ

تُكَذِّبَانِ ﴿ ٤٠ ﴾ يَعْرِفُ الْمَجْرُمُونَ بِسِيمَتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿ ٤١ ﴾ الرحمن:

٣٧ - ٤١، تبدأ مشاهد القيامة هنا بانشقاق السماء وللمرة الأولى نشهدها حمراء وردة كالدهان، ونرى كذلك مشهداً غريباً علينا بعض الشيء في مشاهد القيامة، فسيما الوجوه تدل عليها، والمجرمون يعرفون بسيماهم وبلا سلام ولا كلام يؤخذ بنواصيهم وأقدامهم فيقذفون حيث لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان، وما الحاجة إلى السؤال والوجوه ناطقة والفريقان معروفان. (237)

3- قال تعالى: ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمَجْرُمُونَ ﴾ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانِ ﴿ ٤٤ ﴾

الرحمن: ٤٣ - ٤٤، بينما الأخذ بالنواصي والأقدام يذهل العقول ويرجف الأفئدة، توجه أنظارنا إلى حقيقة الموقف، هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون، هذه هي وما هم أولاء يطوفون بينها وبين حميم آن، متناهٍ في الحرارة، وهم يتراوحون بين جهنم وبين هذا الماء الآني، فيا له ويا لها من عذاب. (238)

236- التحرير والتنوير، ج27، 222، الظلال، ج6، 3449.

237- سيد قطب، مشاهد القيامة في القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط16، 2006م، 250-251.

238- مشاهد القيامة في القرآن، 251.

4- ﴿ وَلِمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۖ ﴿٤٦﴾ فِيهَا ۖ أَلَاءٌ رَّبِّكُمْ تُكَذَّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فِيهَا ۖ

أَلَاءٌ رَّبِّكُمْ تُكَذَّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فِيهَا ۖ أَلَاءٌ رَّبِّكُمْ تُكَذَّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِنْ

كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فِيهَا ۖ أَلَاءٌ رَّبِّكُمْ تُكَذَّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ

إِسْتَبْرَقٍ وَحَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فِيهَا ۖ أَلَاءٌ رَّبِّكُمْ تُكَذَّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْإِطْرَفِ

لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فِيهَا ۖ أَلَاءٌ رَّبِّكُمْ تُكَذَّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ

وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فِيهَا ۖ أَلَاءٌ رَّبِّكُمْ تُكَذَّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ

﴿٦٠﴾ الرحمن: ٤٦ - ٦٠، فالجنتان الأوليان هما ذواتا أفنان فيهما عينان تجريان

فيهما من كل فاكهة زوجان وأهل الجنتين ما حالهما؟ انظر تجدهم متكئين على

فرش بطائنهما من إستبرق وتلك رفاة ظاهرة في الفراش وحنى الجنتين دان، لا

يتعب في القطاف، وذلك أيضا ترف ملحوظ، ولكنه لا يستقصي ما فيهما من

متاع، فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان، عفيفات النظر

والملمس، لا يمددن بأبصارهن ولا يمسسهن إنس ولا جان، وليس هذا وحده فهن

نضيرات لامعات ثمينات كأهن الياقوت والمرجان، وذلك كله جزاء حق لمن

خاف مقام ربه وتوقع الآخرة، وخشي الله فيها، هل جزاء الإحسان إلا

الإحسان؟ (239)

5- قال تعالى: ﴿ وَمَنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ ۖ ﴿٦٢﴾ فِيهَا ۖ أَلَاءٌ رَّبِّكُمْ تُكَذَّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَتَانِ

﴿٦٤﴾ فِيهَا ۖ أَلَاءٌ رَّبِّكُمْ تُكَذَّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاحَتَانِ ﴿٦٦﴾ فِيهَا ۖ أَلَاءٌ

رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهَا فَكَّهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ

﴿٦٩﴾ فَبَيْنَ خَيْرَاتٍ حَسَنٌ ﴿٧٠﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي

الْحَيَامِ ﴿٧٢﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ﴿٧٤﴾

فَأِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَكِينٍ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرَ وَعَبَقْرِي حَسَانِ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٦﴾

الرحمن: ٦٢ - ٧٦، ومن دونهما جنتان، أخريان لذلك الفريق الآخر، وأوصافهما كذلك أدنى من أوصاف هاتين، فهما مدهامتان أي مخضرتان خضرة تميل إلى السواد لما فيهما من أعشاب، فيهما عيانان نضّاحتان، تنضخان بالماء وتنبضان وذلك دون الجريان، فيهما فاكهة ونخل ورمّان، وهناك من كل فاكهة زوجان، فيهن خيرات حسان ومن هن هؤلاء الخيرات الحسان هن حور مقصورات في الخيام، ومن كلمة الخيام نفهم أنهن أشبه بالبدويات، وأنه نعيم بدوي دون النعيم الحضري الذي مر في تينك الجنتين الأخريين، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان، فهن يشتركن بالصون والعفاف مع أولئك. لكن لم يذكر هنا أنهن كأئهن الياقوت والمرجان، وأهل هاتين الجنتين انظر تجدهم متكئين على رفرف خضر، أي أبسطة، وعبقري حسان، وهي جميلة كأنها من صنع عبقر، ولكن المتكآت كانت هناك مبطنة بالإستبرق، وهناك جنى الجنتين دان، هما درجتان من النعيم، تمثل الدرجة الأولى بالترف والرفاهية في الحضر، وتمثل الثانية الترف والرفاهية في الوبر. (240)

المبحث الرابع: منهج القرآن فيما يسمى بالتكرار

المطلب الأول: التكرار: مفهومه وأنواعه وأغراضه

أولاً: مفهوم التكرار

التكرار: من الكر وهو الرجوع، ويقال: كرّه وكرّ، يتعدى بنفسه ولا يتعدّى، أو من كرّر إذا ردّد وأعاد، وهو على وزن تَفْعَال بفتح التاء، وقيل: كرّرت الشيء تكريرا وتكرارا. (241)

والتكرار في الاصطلاح: هو إعادة كلمة أو جملة أكثر من مرة في سياق واحد لنكتة ما، وذلك إما للتوكيد أو لزيادة التنبيه أو للتحويل أو للتعظيم.

241- لسان العرب، مادة (كر).

وقيل: ذكر الشيء مرتين فصاعداً.

وقيل: دلالة اللفظ على المعنى مردداً. (242)

وأشار بعضهم إلى أن هذا التعريف الأخير خاص بالتكرير دون التكرار فهو على هذا فرق بين الاثنين، أما التكرار فهو: زيادة اللفظ على المعنى لفائدة. (243)

وهو فن قولي من الأساليب المعروفة عند العرب، بل هو من محاسن الفصاحة في اللغة العربية.

وقد كثر في كلام بلغائهم وخطبائهم وهؤلاء لا يكررون كلامهم عبثاً ولا يأتون به لغواً. ومن صور التكرار في بياهم وشعرهم قصيدة المهلهل بن ربيعة واصفاً حرب البسوس وما دار بين قومه وبين خصومهم بني بكر من حرب وقتال ويرثي أخاه كليلاً:

على أن ليس عدلاً من كليب إذا ما ضيم جيران المجير

وكرر قوله " على أن ليس عدلاً من كليب " أكثر من تسع مرات.

وكذلك قصيدة الحارث بن عباد حيث قتل ابن أخيه فاستنفر للثأر والقتال، فقال:

كل شيء مصيره للزوال غير ربي وصالح الأعمال

ويقول فيها:

قرباً مربوط النعامة مني لقحت حرب وائل عن حيال

242- فضل عباس، قصص القرآن الكريم، ط1، 2000م، دار الفرقان، عمان، 63، خالد بن عثمان السبت، قواعد التفسير جمعاً ودراسة، ط1، 1421هـ، دار ابن عفان، مصر، القاهرة، ج2، 701.

243- محمد حسين أبو الفتوح، أسلوب التوكيد في القرآن الكريم، ط1، 1995م، مكتبة لبنان، بيروت، 260.

وكرر قوله: " قربا مربط النعامة مني " أكثر من أربع عشرة مرة.

وكذلك قول الشاعر:

لا تقتلي مسلماً إن كنت مسلمة إياك من دمه إياك إياك⁽²⁴⁴⁾

هذا في كلام العرب، وإنما نزل القرآن بلسانهم وكان جارياً في أسلوبه عامة مجرى كلامهم، وبهذا المسلك تستحكم الحجة عليهم في عجزهم عن المعارضة، ولذلك ورد التكرار في القرآن بشكل واضح وملحوظ، وعلى خلاف الكلام البشري الذي لا يسلم من قلق واضطراب فقد جاء في كلام الله تعالى محكماً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ثانياً: أنواع التكرار:

قسّم العلماء التكرار الوارد في القرآن الكريم إلى نوعين: (245)

الأول: تكرار اللفظ والمعنى، وهو ما تكرر فيه اللفظ دون اختلاف في المعنى،⁽²⁴⁶⁾ وهو على قسمين: موصول ومفصول.

1- أما الموصول: فقد جاء على وجوه متعددة.

أ- إما تكرار كلمات في سياق الآية، مثل قوله تعالى: ﴿ هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا

تُوعَدُونَ ﴾^(٣٦) المؤمنون: ٣٦.

244- جامع أحكام القرآن، القرطبي، ج9، 160، روح المعاني، ج15، 150.

245- عن بحث منشور على شبكة الإنترنت في موقع " الإسلام سؤال وجواب"، www.islamqa.com، بعنوان: التكرار في

القرآن الكريم أنواعه وفوائده، انظر: مرآة الإسلام، طه حسين، مرجع سابق، ج2، 98.

246- أسلوب التوكيد في القرآن الكريم، 25.

ب- وإما في آخر الآية وأول التي بعدها، كقوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِثَانِيَةٍ مِّنْ

فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ۝١٥ قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَرُوهَا نَقِيرًا ۝١٦﴾ الإنسان: ١٥

- ١٦.

ت- وإما في أواخرها، كقوله: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝١١ وَجَاءَ

رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝١٢﴾ الفجر: ٢١ - ٢٢.

ث- وإما تكرار الآية بعد الآية مباشرة، كقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ

الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ الشرح: ٥ - ٦، ﴿أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ

۝٣٥﴾ القيامة: ٣٤ - ٣٥، ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ النبأ: ٤-٥،

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٢ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ التكاثر: ٣ - ٤،

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝١٨﴾ الانفطار:

١٧ - ١٨، ﴿فَقُلْ كَيْفَ قَدَر ۝١٩ ثُمَّ قُلْ كَيْفَ قَدَر ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١﴾

المدثر: ١٩ - ٢١.

2- وأما المفصول: وهو ما وقع فيه الفصل بين الجمل المكررة، فهو على صورتين، إما

تكرار في السورة نفسها، وإما تكرار في القرآن كله.

أ- التكرار في السورة نفسها: تكرر قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ

۝٩﴾⁽²⁴⁷⁾ في سورة الشعراء ثمان مرات، وقوله: ﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ

﴿١٥﴾ (248) في سورة المرسلات عشر مرات، وقوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١٣) (249) في سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرة، وقوله:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (١٧) (250) في سورة القمر أربع مرات.

ب- التكرار في القرآن كله على مواضع مختلفة: كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى

هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨) (251) وردت ست مرات، وقوله:

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهْدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ

جَهَنَّمَ وَيَبْسُ الْمَصِيرُ﴾ (٧٣) (252) مرتين، وقوله تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ

الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٧) (253) مرتين.

والثاني: التكرار في المعنى دون اللفظ: وهو ما يكون عادة في القصص أو في ذكر

العذاب والنعيم في الآخرة، أو إحياء الموتى يوم القيامة أو بعض الظواهر الكونية كخلق

السموات والأرض، (254) ومع تكرار هذه القصص أو الظواهر إلا أنها تجيء في كل مرة

248- الآيات، 15، 19، 24، 28، 34، 37، 40، 45، 47، 49، من سورة المرسلات.

249- الآيات، 13، 16، 18، 21، 23، 25، 28، 30، 32، 34، 36، 38، 40، 42، 45، 47، 49، 51، 53، 55،

57، 59، 61، 63، 65، 67، 69، 71، 73، 75، 77، من سورة الرحمن .

250- الآيات، 17، 22، 32، 40، من سورة القمر.

251- الآية 48، سورة يونس، الآية 38، سورة الأنبياء، الآية 71، سورة النمل، الآية 29، سورة سبأ، الآية 48، سورة يس، الآية

25، سورة الملك.

252- الآية 73، سورة التوبة، الآية 9، سورة التحريم.

253- الآية 43، سورة النحل، الآية 7، سورة الأنبياء.

254- أسلوب التوكيد في القرآن الكريم، 25.

بصيغة مختلفة وبمفردات مختلفة، ومن ثم فهي تعرض لأهداف مختلفة فالألفاظ المستعملة في سياق هذا القصص تختلف من موضع لآخر، أما المعاني والعبر فتتكرر من حين لآخر.

وهناك تقسيم آخر للتكرار ولكنه لا يختلف كثيرا عن سابقه، والأحرى أن يكون تحت عنوان مواضع التكرار، وإثباته هنا لفائدة زيادة شكل من أشكال التكرار. (255)

1- تكرار الإضراب: وهو على وجهين:

أ- أن يكون ما فيه من الرد راجعاً إلى العباد، كقوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا

أَضَعْتُ أَحْلَمَ بَلْ أَفْتَرْتَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ الأنبياء: ٥ .

ب- أن يكون إبطالا ولكنه على أنه قد مضى وانقضى وقته، وأن الذي

بعده أولى بالذكر، كقوله تعالى: ﴿بَلْ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ

هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ النمل: ٦٦، فأضرب عن

قولهم وأبطل كذبهم. يقول ابن عاشور في هذا الإضراب: وترتيب

هذه الإضرابات الثلاثة، ترتيب لتتريل أحوالهم، فوصفوا أولاً بأنهم، لا

يشعرون بوقت البعث، ثم بأنهم تلقفوا في شأن الآخرة علما مضطربا

أو جهلا، فخبطوا في شك ومرية، فأعقبهم عمى وضلالة، بحيث إن

هذه الانتقالات مندرجة متصاعدة حتى لو قيل بل أدارك علمهم في

255- عن بحث للدكتور أحمد جمال العمري، بعنوان: التكرار في القرآن العظيم، عثرت عليه ولم أجد مصدرا له، أو معلومات عنه.

الآخرة فهم في شكٍ منها فهم منها عمون لحصل المراد، ولكن جاءت طريقة التدرج بالإضراب الانتقالي أجزل وأهيج وأروع وأدل على أن كلاً من هذه الأحوال المترتبة جديرٌ بأن يعتبر فيه المعبر باستقلاله لا بكونه متفرعاً على ما قبله. (256)

2- تكرار الأمثال، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۖ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۖ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ۖ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ فاطر: ١٩ - ٢٢، وكقوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (١٧) ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (١٨) أو كصيبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْصِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (١٩) البقرة: ١٧ - ١٩.

3- تكرار القصص: كتكرار قصة موسى عليه السلام، وقصة إبليس في السجود لآدم عليه السلام، والغرض من ذلك هو الإتيان بشيء جديد في كل موضع؛ فكأنه يذكر القصة من جانب أو زاوية غير الأولى وما فيها من فائدة، ومن ذلك أيضاً تسليّة قلب الرسول صلى الله عليه وسلم بما اتفق للأنبياء مثله مع

أَمَّهُمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ هود: ١٢٠. (257)

ثالثاً: أغراض التكرار:

1- تقرير المعنى وتوكيده، فإن الكلام إذا تكرر تقرر، (258) وقد ظهر هذا في المواضع التالية:

أ- في الآيات المسوقة للوعيد والتهديد، كقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٢) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) التكاثر: ٣ - ٤.

ب- في الآيات المسوقة في مقام التهويل والتعظيم والتعجب، كقوله: ﴿الْحَاقَّةُ (١) مَا الْخَاقَةُ (٢)﴾ الحاقة: ١ - ٢، وكقوله: ﴿فَقِيلَ كَيْفَ قَدَر (١٩) ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَر (٢٠)﴾ المدثر: ١٩ - ٢٠.

ت- في الآيات المسوقة للتنبيه على ما ينفي التهمة حتى يُتلقى الكلام بالقبول، كقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الدُّنْيَا مَتَعٌ وَإِنَّ الْأَخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩)﴾ غافر: ٣٨ - ٣٩، فقد كرر هنا (يا قوم) للتنبيه على أنه منهم، ولأنه منهم فلا بد أن يدلهم على الرشاد.

257- قصص القرآن الكريم، فضل عباس، مرجع سابق، 69-70، بتصرف واختصار.

258- قواعد التفسير، ج2، 709-711، 715، بتصرف واختصار.

ث- في الآيات المسوقة في مقام الاتعاض، كقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي

وَنُذْرٍ ۝١٦﴾ القمر: ١٦.

ج- في الآيات المسوقة في مقام إنعام الله على عباده، وبيان قدرته، كقوله:

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ۝٥٨﴾ ، ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ۝٦٣﴾ ،

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ۝٧١﴾ الواقعة.

2- إذا طال الكلام وخشي تناسي الأول، أعيد ثانياً تجديداً لعنده، كقوله: ﴿

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا

وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ۝١١٠﴾ النحل: ١١٠، ﴿

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ

وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ۝١١٩﴾ النحل: ١١٩، ﴿لَا

تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ

بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٨٨﴾ آل عمران: ١٨٨.

3- بيان إعجاز القرآن الكريم، فإن من عجز عن الإتيان بالمعنى بصورة واحدة؛

فإنه عن الإتيان بالمعنى الواحد بصورٍ وقوالبٍ لفظيةٍ أعجز، فكيف إذا كانت

هذه القوالب غايةً في الفصاحة والبيان.

4- إفادة معنى جديد، فإنّ بعض الآيات تكررت في كتاب الله مرات، وفي كل

مرة تكون متعلقة بما قبلها كقوله تعالى: ﴿فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمْ أَتُكْذِبُونَ﴾⁽²⁵⁹⁾ الرحمن: ١٣، وهو ما يسمّى تعدد المتعلق.

5- إنه يعسر على الناس قراءة القرآن كله في وقت واحد، فلهذا أدرج الحكيم

الرحيم أكثر المقاصد القرآنية في أكثر سورته لاسيما الطويلة منها حتى صارت كل سورة قرآناً صغيراً، فسهل لكل متعشّق لفهم القرآن سبيله إلى ذلك، فكرّر التوحيد والإيمان والبعث والحشر والقصة.⁽²⁶⁰⁾

وأما الغرض من التكرار في القصة ما يلي:

1- إنه لما كان هدف القصة في القرآن إثبات الوحدانية في الدين والعقائد

والمعبود والمصير الذي يلقاه المكذبون، لما كان الأمر كذلك استدعى المنطق القرآني هذا التكرار لتحقيق تلك الأغراض وتثبيتها في قلوب المؤمنين، وتحذير المعاندين من مغبة الإعراض عنها، فتطلب ذلك عرض شريط الأنبياء والرسل الداعين إلى إله واحد ودين واحد مرات عديدة بتعدد تلك الأغراض.

2- ثم لما كان الغرض من القصص القرآني غرضاً دينياً في المقام الأول

اقتضى الأمر أن تُعرض منه الحلقات التي تقتضيها هذه الأغراض؛ فآخر حلقة تُعرض - بحسب ترتيب التزول - تتفق مع أظهر غرض ديني صيغت القصة من أجله.

259- قواعد التفسير، ج2، 702.

260- قصص القرآن الكريم، 61-63، بتصرف واختصار.

3- ومن الحكمة أيضاً في هذا التكرار، بيان أهمية تلك القصة لأن تكرارها

يدل على العناية بها وتوكيدها لتثبت في قلوب الناس، وكذلك من

الحكمة أيضاً مراعاة الزمن وحال المخاطبين بها، ولهذا نجد الإيجاز

والشدة غالباً في قصص العهد المكي، والعكس في قصص العهد المدني.

4- فضلاً عما في هذا التكرار من ظهور صدق القرآن وأنه من عند الله

تعالى حيث تأتي على رغم تكرارها على أتم وجه وأفضل تناسب،

دون تناقض في المضمون أو تعارض في سرد الحدث. (261)

المطلب الثاني: التكرار بين المؤيدين والمعارضين

وقع الخلاف في القول بالتكرار بين فريقين من العلماء .

- أحدهما رأى في التكرار أسلوباً من أساليب العرب وسراً من أسرار الفصاحة جاء

به القرآن ليحقق أهدافاً معينة تثري المعنى، وتغني المحتوى، وتزيد في المضمون.

وقد رأى هذا الفريق أن التكرار ليس ذماً أو قدحاً إلا إن كان مما يمكن

الاستغناء عنه فجاء خالياً من أي معنى جديد يضاف إلى الأول فيكون عندها لغواً

لا طائل منه وليس في القرآن شيء من هذا .

بل هم يرون أيضاً أن التكرار واحدٌ من الأغراض البلاغية تحدّث عنها علماء

البلاغة وسطّروا الكتب في بيانها وتحليلتها تحت عنوان الإطناب وما فيه عن التكرير

أو ما يعتمد عليه أو ما كان نابعا منه. (262)

261- قصص القرآن الكريم، 61-63، بتصرف واختصار.

262- فضل عباس، البلاغة فنونها وأفانها علم المعني، ط4، 1997م، دار الفرقان، عمان، 481، 487. أسلوب التوكيد في القرآن

الكريم، 257.

والتكرار عندهم يؤدي وظيفتين أولاهما : دينية , فالقرآن كتاب هداية وإرشاد وتشريع ومن أهم ما يؤديه التكرار هو التقرير والتوكيد وإظهار العناية به ليكون أمثل في السلوك و أبين للاعتقاد . والثانية أدبية ، فالهدف منه الاستلذاذ أو التوكيد أو زيادة التنبيه أو التهويل أو التعظيم. (263)

– **الفريق الثاني:** وهم الذين ينفون التكرار تماماً لأنهم يرون أن التكرار هو تكرار اللفظ نفسه في السياق نفسه للمعنى نفسه بغير فائدة . أما ما يأتي في سياق آخر ومناسبة أخرى غير التي جاء فيها أولاً فإنه لا يعد تكراراً بل يسمونه تكاملاً أو تنويعاً. (264)

فلا يوجد في القرآن نصّان متماثلان إنما يوجد تشابه فقط كما هو الحال بين الإخوة والأقارب، أو كما هي ثمار الجنة: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ البقرة: ٢٥، بالتنوع بذاته جمال فوق أنه يذهب عن النفس الملال. (265)

فعلى متدبر كلام الله أن يبحث في كل نص يبدو له أنه من النصوص المكررة في القرآن ليكتشف غرض التكرير إذا كان النص مكرراً حرفياً، وليكتشف فوارق المعاني إذا كان النص المكرر مختلفاً ولو بعض الشيء، فكثير من النصوص التي

263- قصص القرآن الكريم، 58-60، بتصرف واختصار.

264- قصص القرآن، 60-63، بتصرف واختصار، محمد قطب، لا يأتون بمثله، ط3، 2007، دار الشروق، القاهرة، 11 وما بعدها.

265- محمد قطب، دراسات قرآنية، 253-270، وفيه بحث قيم عن التكرار مع أمثلة وافرة، مرجع سابق، قصص القرآن، 64.

يُتوهم فيها التكرار هي ليست في الحقيقة مكررة ولكنها متكاملة يؤدي بعضها من المعاني المرادة ما لا يؤديه البعض الآخر بزيادة بعض الأفكار على أصل الموضوع الذي يراد بيانه وذلك من جهات مختلفات. (266)

وأصحاب هذا الرأي يرون أنه لا تكرار حتى في القصص القرآني ، بل هو عرض لجانب معين اقتضاه السياق وأريد به عبرة ما. وهكذا فالقصة الواحدة قد يستشهد بها مرات عديدة في مناسبات مختلفة؛ إذ فيها لكل مناسبة ما يصلح شاهداً أو عظة أو عبرة .

فلتطمئن قلب الرسول والمؤمنين يُؤتى بقصة موسى المنصور على فرعون وجنوده بتأييد الله له ولمن آمن معه .

ولخالع قلوب الجبابرة وجنودهم يُؤتى بقصة موسى المنصور على فرعون وجنوده بالغرق .

ولبيان دعوة الجبارين في الأرض إلى دين الله يُؤتى بقصة موسى ودعوته لفرعون وما جرى بينهما من مناظرات .

ولبيان سنة من سنن الله في إمهال الذين كفروا وطمعوا في الأرض، مع معالجة تأديبهم بالآيات والعقوبات الجزئية يُؤتى بقصة موسى مع قومه وكيف تنابعت عليهم الآيات التسع .

وهكذا إلى غير ذلك من أهداف تستدعيها المناسبات وهي أغراض تربوية يظهر فيها توجيه الاهتمام في المرحلة التربوية للعناصر المناسبة لها من القصة. (267)

266- عبد الرحمن حسن حينكة، قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، ط3، 2004م، دار القلم، دمشق، 307.

267- التدبر الأمثل، 314، التعبير القرآني، فاضل السامرائي، 283-284، بتصرف واختصار.

وخلاصة الأمر أنه لا خلاف بين الفريقين سوى خلاف اللفظ والمصطلح "ولا مشاحة في الاصطلاح" إذ الفريقان متفقان على أن هذا التكرار أو التكامل أو التنويع سمة بلاغية من سمات القرآن وسر من أسرار الإعجاز فيه يثري المعنى ويضيف الجديد .

المطلب الثالث: أمثلة على التكرار

1- في سورة المرسلات ذكر سبحانه وتعالى قوله: ﴿وَلَيْلٌ يُؤْمِدُ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾

عشر مرات.

ابتدأت السورة بقسم الله تعالى بأن يوم القيامة واقع لا محالة، عندما يزول نور النجوم وتنشق السماء وتنسف الجبال، فذاك هو يوم الفصل، وبعد ذلك ذكر الدعاء الحال على الكافرين سبع مرات، أي ذكرها بعد سبعة مشاهد، يستحق المكذب بها الويل والشبور، ثم جاء ذكر الناجين في آيات ثلاث لم يتخللها الدعاء بالويل؛ لئلا يشوب بشارتهم تنقيص أو تنغيص: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ

﴿٤١﴾ وَفَوْكَهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَبْنَاكَ

بَنَجْرَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ المرسلات: ٤١ - ٤٤ ، ثم عادت الآيات إلى ما بُنيت عليه السورة من وعيد وتخويف إلى آخرها، وتكرر فيها الدعاء بالويل للمكذبين ثلاث مرات، ليكون زيادة في تنكيل المكذبين، وتحسرهم بسماع حال على الضد من حالهم.

فكل واحدة من العشر ذكرت عقب آيات غير الأولى، فلا يكون تكرارها مستهجنًا، ولو لم يكرر كان متوعدًا على بعض دون بعض.

والإجابة على تكرارها - وهي دعاء بالويل - بعد ذكر حال الناجين والمتقين؛
تحذير من العقوبة على المعصية، ولتكون رادعاً عنها فيكون من اعتبار الشيء
بضده. (268)

2- في سورة الشعراء كرر سبحانه وتعالى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ
مُؤْمِنِينَ﴾ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ في ثمانية مواضع، كانت كل
واحدة عقب قصة من قصص الأنبياء في الأمم السابقة، فصار كأنه قال: "إن في
ذلك لآية بهذه القصة" حيث ذكر قصصاً مختلفة.

فكان التكرار أبلغ في الوعظ، وأمين للعبارة، وكذلك فإنها مشيرة إلى مرحلة من
القول يحسن الوقوف عندها والتريث لتدبرها وتأمل ما تحوي من دروس تستفاد
مما مضى من حوادث التاريخ. (269)

3- في سورة القمر كرر سبحانه وتعالى قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ (١٦) القمر:
١٦، أربع مرات على النحو التالي: ذكرها بعد قصة نوح عليه السلام مرة
وذكرها أخرى بعد قصة قوم ثمود وذكرها أثناء قصة عاد مرتين.
وتكرارها بشكل عام للتخويف والتحذير بعد كل قصة تكذيب وكفر، فإن هذا
هو مصير المكذبين بآيات الله تعالى، والكافرين برسله.
وتكرارها مرتين في قصة عاد إنذار وتحذير لهم قبل إهلاكهم، وإنذار وتحذير
لغيرهم بعد إهلاكهم. (270)

268- ملاك التأويل، ج2، 1126-1127، بصائر ذوي التمييز، ج1، 495، قواعد التفسير، ج2، 702-703.

269- بصائر ذوي التمييز، ج1، 344-346.

270- بصائر ذوي التمييز، ج1، 446.

4- سورة "الكافرون": ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُوتُ ۖ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۚ﴾ (٢) وَلَا

أَنْتُمْ عِبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۚ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ۚ وَلَا أَنْتُمْ عِبِدُونَ مَا أَعْبُدُ

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (٦) الكافرون: ١ - ٦، جاءت هذا السورة في ست

آيات، أولها خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، وفيها نداء للكافرين، وآخرها

الحكم والنتيجة، وما بينهما أربع آيات يمكن تقسيمها من حيث المعنى إلى

مجموعتين:

- الأولى: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۚ﴾ (٢) الكافرون: ٢، و﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ

﴾ (٤) الكافرون: ٤.

- الثانية: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عِبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۚ﴾ (٣) الثالثة والرابعة.

فالمجموعة الأولى تشير إلى أن الرسول لا يعبد ما يعبد الكافرون، والثانية تنفي عبادة المشركين لما يعبد الرسول عليه الصلاة والسلام. (271)

وفي هذا التكرار إعجاز، ففيه نفى الله عن نبيه عبادة الأصنام في الماضي والحال والاستقبال، ونفى عن الكفار المذكورين عبادة الله في الأزمنة الثلاثة أيضا. (272)

وتفسيرها على النحو التالي: قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون أي لا يمكن أن أعبد في مستقبل الأيام معبوداتكم الفاسدة، كيف وقد أكرمني الله بالنبوة وهداني الصراط المستقيم؟ وأنتم تعلمون أنه قبل أن يكرمني الله بالوحي ما عبدت آلهتكم، فكيف ترجون مني أن أعبدها اليوم، أو أعبدها في

271- إعجاز القرآن الكريم، فضل عباس، 226.

272- بصائر ذوي التمييز، ج1، 548-549.

ما بعد؟ أما أنتم فلا يمكن أن تعبدوا الله الذي أعبدته - والسورة خطاب لقوم علم الله أنهم لا يؤمنون - وبخاصة بعد أن استحكم بيني وبينكم العداء، فأنتم ما عبدتم الله الذي دعوتكم لعبادته يوم أن كنتم تعدوني فيما بينكم الصادق الأمين، وقبل أن يحدث بيني وبينكم ما يعكر الصفو.

والخلاصة أن كل آية من المجموعتين جاءت على صورة الدعوى وجاءت الآية الثانية على صورة الدليل، فكأن كلاً من الآيتين دعوى ودليلاً، فالدعوى في المجموعة الأولى: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ (٢) الكافرون: ٢، أي لا يمكن أن أجيبكم إلى ما طلبتم، فأعبد آلهتكم، والدليل على هذه الدعوى: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ (٤) الكافرون: ٤، أي قبل أن يكرمني الله بالوحي ما عبدت آلهتكم، فهل يعقل أن أعبدها الآن أو بعد الآن؟ وأما الدعوى في المجموعة الثانية فهي: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (٢) الكافرون: ٣، أي لا يمكن أن تصدقوا فتعبدوا الله الذي أعبدته، وقد حدث بيني وبينكم ما حدث ودليل هذه الدعوى: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (٥) الكافرون: ٥، أي حين ما دعوتكم لأول وهلة، وأنتم لم تجربوا علي كذبا، وعلمتم أن لا مطمع لي في شيء، فلم تجيبوني، فكيف تجيبوني اليوم؟ (273)

فيوحي هذا التكرير باليأس في قلوب من كفر من أن ينصرف الرسول عليه السلام عن دينه، إلى ما كان يعبد هؤلاء، وليتدبروا سر هذا الإصرار من محمد

273- إعجاز القرآن الكريم، فضل عباس، 227-228، قواعد التفسير، ج2، 705-708، نقلا عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

صلى الله عليه وسلم، فعساهم يدركون هذا السر؛ وهو أن النبي على حق فيما يدعو إليه، فلم ينصرف عنه إلى أديان لا سند لها من الصواب والحق.

المطلب الرابع: التكرار في سورة الرحمن

كرّر سبحانه وتعالى قوله: ﴿فَيَأْتِيءَ الْآلَاءَ رِيكْمًا تُكْذِّبَانِ﴾ إحدى وثلاثين مرة على النحو التالي:

- ثمانية منها ذكرت عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله وبدائع صنعه ومبدأ الخلق ومعادهم، فكانت الأولى بعد ذكر عدد من النعم ابتداءً من تعليم الإنسان القرآن إلى خلقه ثم تعليمه البيان، ثم أردف فذكر نعمة الشمس والقمر والنبت والشجر الذي يحمل الثمر، ثم خلقه السماء ورفعها، وأمره بالعدل والإنصاف وعدم الطغيان، ثم خلقه الأرض ووضعها للمشى في مناكبها والانتفاع مما بث فيها من ثمار ودواب، ثم خلق الثقلين وبيان المادة الأولى التي خلقا منها، ثم ذكر الربوبية للكون كله من جميع جهاته، ثم أردف بخلق البحرين العذب والمالح، وإرسالهما والتقاءهما دون امتزاجهما، وما يخرج منهما للزينة والانتفاع، ثم بتسخير السفن وجريها، ثم فناء الكون ومن عليه، ثم افتقار أهل السماوات والأرض إليه جل شأنه.

- سبعة منها عقب تقرير عجز الثقلين عن الخروج على قانون الكون وناموسه، ثم مشهد الانقلاب الكوني، وتغيّر الدنيا وتبديلها واستقبالها اليوم الآخر، ثم ذكر عاقبة المجرمين وهي النار التي كذبوا بها.

- ثم ثمانية بعد وصف الجنتين الأوليين، وأهلها الذين استحقوها جزاء ما عملوا وقدموا في الحياة الدنيا.

- ثم ثمانية أخرى بعد وصف الجنتين الأخريين. (274)

وفائدة التكرير هنا واضحة، فقد جاء لتوكيد التقرير بما لله تعالى من نعم على المخاطبين، وتعرض بتوبيخهم على إشراكهم بالله أصناما وأهواء، لا نعمة لها على أحد، وكلها دلائل على تفرد الإلهية، وعن ابن قتيبة: إن الله عدد في هذه السورة نعماءه، وذكر خلقه آلاءه، ثم اتبع كل حلة وصفها، ونعمة وضعها، بقوله هذا، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين لينبهم على النعم ويقررهم بها، كما أن التكرار جاء لطرد الغفلة وتأكيد الحجة، كما تقول لمن تتابع فيه إحسانك وهو يكفره وينكره: ألم تكن فقيرا فأغنيتك، أفتنكر هذا، ألم تكن خاملاً فعززتك، أفتنكر هذا، ألم تكن راحلاً فحملتك، أفتنكر هذا. (275)

وقال بعضهم: إن هذا التكرار ليس لغرض التوكيد، وإنما لغرض التنبيه، يقول محمد أبو الفتوح: أما إذا تعددت المقامات فإنه يكرر أكثر من ذلك (أي أكثر من ثلاث مرات وهو ما جرى عليه لسان العرب) لأن المعاني التي وردت في مثل هذا المقام تعددت. (276)

ويقول في موضع آخر: فهذا التكرار ليس توكيدا، لأنه تكرر في اللفظ لمعان متعددة؛ فكل آية مكررة إنما هي للمعنى الذي ذكر قبلها وليس في هذا تكرر للتوكيد. (277)

274- ملاك التأويل، ج2، 1061-1062، بتصرف واختصار، بصائر ذوي التمييز، ج1، 448-449. الكرمان، محمود بن حمزة بن نصر، البرهان في متشابه القرآن، ط3، 2007، دار الوفاء، المنصورة، مصر، 306.

275- التحرير والتنوير، ج27، 230، المحرر الوجيز، ج14، 189، روح المعاني، ج15، 149-150، جامع أحكام القرآن، ج9، 160.

276- أسلوب التوكيد في القرآن الكريم، 22-23.

277- أسلوب التوكيد في القرآن الكريم، 25. وهذا ينطبق أيضا على ما جاء في سورة الشعراء وسورة القمر وسورة المرسلات.

وقد يعترض بعضهم بأن تكرارها بعد النعم والآلاء مما خلقه لهم في الدنيا أو بما أعده للعاملين منهم في الآخرة من جنان، كل هذا واضح وبين، ولكن ما الغرض من تكرارها بعد ذكره سبحانه وتعالى فناء العالم وانقلاب الكون يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات، وبعد ذكره ما أعد للمجرمين من عذابٍ أليم؟

فالقول في هذا: إنه سبحانه كررها لاستخراج الشكر من عباده من خلال الترهيب والإنذار والوعيد، فقد صرف الله تعالى عن عباده عذاب جهنم، ودفع عنهم مشهد المجرمين وهم يقذفون في النار وهذا مما يوازي النعم والآلاء وقد يفوقها، ليستخرج من خلال ذلك شكرهم وعملهم بما يوجب لهم الجنان. (278)

ولهذا يحسن التكرار هنا في الوعد والوعيد؛ حتى يتمكن أمر المتبوع في ذهن السامع، ويدفع عنه ظن التجوز والمبالغة. (279)

278- الأساس، سعيد حوى، ج10، 5656، بتصرف واختصار، بصائر ذوي التمييز، ج1، 448-449، قواعد التفسير، ج2، 702.

279- أسلوب التوكيد في القرآن الكريم، 27.

أخيراً: أهم ما توصل إليه الباحث في دراسته من نتائج

يرى الباحث أن أهمّ النتائج التي توصل إليها في بحثه هي:

1- الفرق بين التفسير والتأويل فرقٌ ليس له من الأثر ما يظهر إلا في الدراسات والبحوث العلمية؛ حيث أصبحت كلُّ لفظة تحلُّ محلَّ أختها في عصرنا وأمكن الاستغناء عن الخلاف في هذا الباب.

2- التفسير بالمأثور هو كلُّ ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم، وما جاء عن الصحابة الكرام إذا اتفقوا عليه ولم يختلفوا فيه فدلَّ على أنهم سمعوه من النبي عليه الصلاة والسلام، ولم يكن عن رأيٍ منهم، أمّا ما ثبت أنه صادر عن رأيهم، وما نُقل عن التابعين فإنه خارج عن كونه تفسيراً بالمأثور.

3- إن الخلاف الواقع بين العلماء في قضية التفسير بالرأي بين مانع له ومجيز للتفسير به، خلاف قديم لم يبارح القرون الأولى، وإنما كان المنع عن تفسير القرآن بالرأي الفاسد وهو ما لم يكن جارياً على قوانين اللغة وقواعد الشرع.

4- تعدّد اتجاهات التفسير وتنوّع مدارسه راجعٌ إلى اتساع رقعة الدولة الإسلامية وضمّها عدداً كبيراً من الشعوب التي تمتلك ثقافات ومفاهيم خاصّة أدخلتها إلى حظيرة الإسلام؛ مما أدى بطبيعة الحال إلى أن تتوارد على كتاب الله تعالى أممٌ وطوائف شتى تذوقه متأثرةً بظروفها الخاصّة وثقافتها المتأصّلة فيها، ويفسّره المفسرون منهم تفسيراً يوجّه النصَّ توجيهاً حسب ظرفه وثقافته.

5- إن الأصول الأولى للتفسير البياني راجعةٌ إلى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد فسّر النبي عليه الصلاة والسلام آياتٍ من القرآن الكريم، ونحا في عدد منها المنحى البياني، وكذلك فعل صحابته الكرام حين قرؤوا القرآن بفطرتهم السليمة وسليقتهم

القويمة، وهذا يؤكد خطأ من اتجه من المؤرخين إلى خلوّ صدر الإسلام من التفسير البياني حتى قرون متأخرة ظهرت فيها مصطلحات البلاغة وعلومها.

6- كان لمدرسة الأستاذ الإمام محمد عبده رحمه الله أكبر الأثر في تغيير منحى الدراسات الشرعية، والقرآنية منها على وجه الخصوص؛ حيث توجّه لدراسة القرآن ببعده الاجتماعي والإصلاحي، وتوظيف الجوانب العلمية في خدمة هذا الطابع، ولكنه أيضاً لم يغفل الجانب البياني في القرآن؛ بل إنه قد أولاه الكثير من الاهتمام في حلقاته القرآنية، وجلساته العلمية.

7- للعلماء الوسطاء عظيم الفضل في دراسة أعمال من قبلهم من العلماء، ونقلها على أحسن وجوهها إلينا شرحاً ودرساً وكتباً ونهجاً، وهذه هي سنن العلم ودأب العلماء؛ خلف أمين ينقل عن سلف عظيم.

8- سورة الرحمن سورة مكيّة على رغم ما قيل عن مدنيّتها، يرجّح هذا الرأي كثيرٌ من الروايات الواردة في هذا الشأن، كما وترجّحه أغراض السورة وموضوعاتها، والتي تشير بجلاء إلى تأكيد أصول العقيدة الإسلامية في نفوس المسلمين بعد تطهيرهم من أضرار الوثنية الجاهلية، وكذلك تركيزها على مشاهد البعث والجزاء ومشاهد العقاب والثواب، كما يرجّح مكيّتها أيضاً أسلوبها وما فيه من جزالة في تقرير القواعد وعرض المشاهد وقصر الآيات، وهو أسلوب مكيّ.

9- المتشابه اللفظي في القرآن الكريم آيةٌ من آيات إعجاز هذا الكتاب العزيز، وإنّ هذا التشابه مهما تقارب في اللفظ والترتيب، ومهما اتحد في الشكل والظاهر، إلا أنّ لكل آية منه موضعها ومحلّها المتساوق غايةً المتساوق مع نسق السورة وتسلسل الموضوعات والأغراض فيها.

10- كلُّ لفظة في القرآن الكريم إنما جاءت في موضعها الأحقُّ بها، "بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلا مرآته الناصعة وصورته الكاملة، ولا يجد اللفظ في معناه إلا وطنه الأمين وقراره المكين".

11- أسلوب القرآن أسلوب عجب، وأداؤه للكلام أداءٌ فذٌّ؛ فقد يقدّم من الكلام ما حقّه التأخير، وقد يؤخّر منه ما حقّه التقديم، كذلك فإنه قد يحذف منه ما حقّه الذكر، وقد يذكر منه ما حقّه الحذف؛ وكلُّ ذلك لسرٍّ بديع، أو لغرض خفي.

12- الخلاف بين العلماء في قضية ماهيّة التكرار خلافٌ لفظٍ ومصطلح، "ولا مشاحة في الاصطلاح" إذ الفريقان متفقان على أن "التكرار" أو "التكامل" أو "التنوع" سمةٌ بلاغية من سمات القرآن، وسرٌّ من أسرار الأعجاز فيه؛ يثري المعنى ويضيف الجديد.

13- تكرر قوله تعالى: ﴿فَيَأْتِيْءَ الْآلَءَ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ في سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرّةً ليس تكرر تأكيد، ولا هو تكرر من غير فائدة، وإنما جاء لتعدد المقامات؛ حيث إن المعاني التي وردت في السورة تعددت؛ فالتكرار فيها تكرر في لفظ لمعانٍ متعددة؛ فكلُّ آية مكرّرة إنما هي للمعنى الذي ذكر قبلها، وليس فيه معنى التوكيد.

المصادر والمراجع

- ابن الأثير الجزري: مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الشيباني، جامع الأصول، ط1، 1418هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ابن الأثير، أسد الغابة، ط2، 2002، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ابن عاشور: محمد الطاهر، التحرير والتنوير، ط1، 1420هـ، مؤسسة التاريخ، بيروت - لبنان.
- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، أدب الكاتب، تحقيق محمد طعمة حلي، ط2، 2001، دار المعرفة، بيروت.
- ابن منظور، جمال الدين بن محمد بن مكرم، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، لبنان، مؤسسة التاريخ العربي، تحقيق محمد عبد الوهاب، محمد الصادق العبيدي.
- ابن هشام، السيرة النبوية، ط1، دار الفكر.
- أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، ط2، 1413هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون.
- أبو السعود محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار المصنف، القاهرة.
- أبو داود، سنن أبي داود، ط1، 2004، دار الأفكار الدولية، عمان.
- أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- أبو عبيدة معمر بن المثنى، مجاز القرآن، ط2، 1981، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- أحمد العلاونة، ذيل الأعلام معجم تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار المنارة، جدة، ط2، 2002.
- أحمد جمال العمري، بحث بعنوان: التكرار في القرآن العظيم، عثرت عليه ولم أجد مصدرا له، أو معلومات عنه.
- أحمد حسن فرحات، في علوم القرآن عرض ونقد وتحقيق، ط1، 2001م، دار عمار، الأردن.
- الآلوسي، شهاب الدين محمد، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار الفكر، بيروت.
- أمين الخولي، مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، ط1، 1961م، دار المعرفة.
- البخاري، صحيح البخاري، ط1، 2003، دار ابن حزم بيروت، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي.
- البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء، معالم التنزيل، ط1، 1415هـ، دار الكتب العلمية، لبنان، مطبوع إلى جانبه تفسير الخازن.
- البيهقي، شعب الإيمان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1410هـ، بتحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول.
- الترمذي، الجامع الكبير، ط2، 1998، دار الغرب الإسلامي، بيروت، بتحقيق: د.بشار عواد معروف.

- الجاحظ، **البيان والتبيين**، تحقيق عبد السلام هارون، ط7، 1998، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- الجاحظ، عمرو بن بحر، **البحلاء**، علق عليه حسان الطيبي، ط1، 2006، دار المعرفة، بيروت.
- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، **أسرار البلاغة**، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، ط1، 1991، دار المدني، جدة.
- الجرجاني، علي بن محمد، **التعريفات**، دار الريان للتراث، تحقيق إبراهيم الاياري
- جمال البناء، **تفسير القرآن الكريم بين القدامى والمحدثين**، ط1، 2008، دار الشروق، القاهرة.
- الحاكم، **المستدرک**، ط1، 1990، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الخازن، علاء الدين علي بن محمد، **لباب التأويل في معاني التنزيل**، ط1، 1415هـ، دار الكتب العلمية، لبنان، مطبوع إلى جانبه معالم التنزيل للبغوي.
- خالد بن عثمان السبت، **قواعد التفسير جمعاً ودراسة**، ط1، 1421هـ، دار ابن عفان، مصر، القاهرة.
- خالد عبد الرحمن العك، **أصول التفسير وقواعده**، ط2، 1406هـ، دار النفائس بيروت.
- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم، **مقدمة جامع التفاسير مع تفسير سورة الفاتحة ومطالع البقرة**، ط1، 1984، دار الدعوة، الكويت.
- الراغب الأصفهاني، الحسين بن المفضل، **مفردات ألفاظ القرآن**، ط3، 1423هـ، دار القلم ، دمشق.

- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، ط2، 1422هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الزمخشري، محمود بن عمر، الكشف عن حقائق غوامض التزويل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ط3، 2003، دار الكتب العلمية، بيروت.
- سعيد حوى، الأساس في التفسير، ط1، 1985م، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.
- السمين الحلبي، أحمد بن يوسف، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، ط1، 1414هـ، دار الكتب، بيروت، لبنان.
- سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ط17، دار الشروق، القاهرة، 2004.
- سيد قطب، في ظلال القرآن، ط15، 1988م، دار الشروق، القاهرة.
- سيد قطب، كتب وشخصيات، ط3، 1983م، دار الشروق، مصر.
- سيد قطب، مشاهد القيامة في القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط16، 2006م.
- السيوطي، جلال الدين بن عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتقان في علوم القرآن، 1424هـ دار الكتب العلمية، بيروت.
- صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ط17، 1988م، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.
- صفية شمس الدين، المدخل إلى دراسة علوم القرآن، ط1، 2006م، مركز البحوث في الجامعة الإسلامية بماليزيا، كوالالمبور.
- صلاح عبد الفتاح الخالدي، التفسير والتأويل في القرآن الكريم، ط1، 1416هـ، دار النفائس، عمان، الأردن.

- الطباع، إياد خالد، محمد الطاهر بن عاشور علامة الفقه وأصوله والتفسير وعلومه، ط1، 2005م، دار القلم، دمشق.
- الطبري، تفسير الطبري، ط1، 2000، مؤسسة الرسالة، تحقيق محمود محمد شاكر وأحمد محمد شاكر.
- طه حسين، مرآة الإسلام، ط4، دار العلم للملايين، بيروت.
- عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، ط3، دار المعارف، القاهرة.
- عائشة عبد الرحمن، التفسير البياني للقرآن الكريم، ط7، دار المعارف، مصر.
- عبد الحق بن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ط1، 1991م، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر.
- عبد الرحمن حسن حبنكة، قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، ط3، 2004م، دار القلم، دمشق.
- عدنان محمد زرزور، علوم القرآن وإعجازه وتاريخ توثيقه، ط1، 2005، دار الأعلام، عمان.
- الغرناطي، أحمد بن الزبير، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التثريل، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1983، بيروت.
- فاضل صالح السامرائي، التعبير القرآني، ط5، دار عمار، عمان، 2007.
- فضل حسن عباس، التفسير أساسياته واتجاهاته، ط1، 1426، مكتبة دنديس، عمان الأردن.
- فضل عباس، إتقان البرهان في علوم القرآن، ط2، 1997، دار الفرقان، عمان.

- فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ط5، 2004، دار الفرقان، عمان.
- فضل عباس، البلاغة فنونها وأفنانها علم المعني، ط4، 1997م، دار الفرقان، عمان.
- فضل عباس، قصص القرآن الكريم، ط1، 2000م، دار الفرقان، عمان.
- فهد الرومي، اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، ط4، 2002، مكتبة الرشد، الرياض.
- الفيروزبادي، محمد بن يعقوب، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، المكتبة العلمية، بيروت.
- الكرمان، محمود بن حمزة بن نصر، البرهان في متشابه القرآن، ط3، 2007، دار الوفاء، المنصورة، مصر.
- محمد حسين أبو الفتوح، أسلوب التوكيد في القرآن الكريم، ط1، 1995م، مكتبة لبنان، بيروت.
- محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، 1424هـ، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية.
- محمد رجب البيومي، التفسير القرآني، المؤسسة الحديثة.
- محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ط1، 1418هـ ، تحقيق بديع السيد اللحام، دار قتيبة.
- محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، دار القلم، الكويت 1984.
- محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ط5، 1981م، دار القرآن الكريم، بيروت.
- محمد علي الصابوني، مختصر تفسير ابن كثير، ط7، 1981م، دار القرآن الكريم، بيروت.

- محمد علي شاهين، أعلام الصحوة، كتاب مخطوط أطلعني عليه المؤلف
- محمد علي شاهين، المصادر الإسلامية، كتاب مخطوط أطلعني عليه المؤلف.
- محمد قطب، دراسات قرآنية، ط8، 2004، دار الشروق، القاهرة.
- محمد قطب، لا يأتون بمثله، ط3، 2007، دار الشروق، القاهرة.
- مسلم، صحيح مسلم، ط1، 1999، دار الأرقم ابن أبي الأرقم، بيروت.
- مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، المكتبة العصرية، بيروت، 2001.
- مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، ط3، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- المناوي، محمد بن عبد الرؤوف، التوقيف على مهمات التعاريف، ط2، 1423هـ، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، سوريا.
- موقع "الإسلام سؤال وجواب"، www.islamqa.com.
- موقع لمسات بيانية للدكتور فاضل السامرائي، www.lamasaat.8m.com.
- وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ط2، 2003م، دار الفكر، دمشق.